

شعر حافظ

إبراهيم عبد القادر المازني

شعر حافظ

شعر حافظ

تأليف
إبراهيم عبدالقادر المازني



شعر حافظ

إبراهيم عبدالقادر المازني

رقم إيداع ٢٠١٣/٩٥٠٣
تدمك: ١ ٣٠٦ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

مقدمة

كتبنا هذا النقد منذ عام ونشرناه تباعًا في عكاظ ولم يكن الباعث لنا عليه كما حسب بعضهم ضغينة نحملها للرجل أو عداوة بيننا وبينه، وكيف يكون شيء من ذلك ولا علم لنا به ولا صداقة ولا صحبة، ولا نحن نرتزق من الكتابة والشعر، أو نزاحمه على الشهرة؛ لأن ما بيننا من تباين المذهب واختلاف المنزع لا يدع مجالًا لذلك، ولكني لسوء الحظ أحد من يمثلون المذهب الجديد الذي يدعو إلى الإقلاع عن التقليد والتنكيب عن احتذاء الأولين فيما طال عليه القدم ولم يعد يصلح لنا أو نصلح له، أقول: لسوء الحظ لأنه لو كان الناس كلهم يرون رأينا في ضرورة ذلك وفي وجوب الرجوع عن خطأ التقليد لربحنا من الوقت ما نخسره اليوم في الدعوة إلى مذهبنا ومحاولة رد جمهور الناس عن عادة إذا مضوا عليها أفقدتهم فضلية الصدق ومزية النظر وهما عماد الأدب وقوام الشعر والكتابة.

ولو كان الناس اعتادوا النقد وأَلِفوا الصراحة في القول وتوخي الصدق في العبارة عن الرأي لما كانت بي حاجة إلى هذه المقدمة أو ضرورة إلى تبرئة نفسي ودفع ما يرموني به، ولكنت أنشر النقد على ثقة من حسن ظن القراء بي وبخلوص نيتي وبراءة سريرتي مما تصفه الأوهام ويصوره الجهل، ولكننا لسوء الحظ مضطرون أن نثبت حسن القصد في كل ما ننقد كأن المرء لا يمكن أن يفعل شيئًا إلا ودافِعه الضغائن والأحقاد، ومن سوء حظ الناقد في مصر أنه يكتب لقوم لا يستطيع أن يركن إلى إنصافهم أو يعول على صحة رأيهم، وليسامحني القراء في ذلك فقد رأيت عجبًا أيام كنت أنشر هذا النقد: من ذلك أني كنت إذا قلت: إن حافظًا أخطأ في هذا المعنى أو ذاك قال بعضهم: لم يخطئ حافظ وإنما اتبع العرب وقد ورد في شعرهم أشباه ذلك كأن كل ما قال العرب لا ينبغي أن يأتيه الباطل ولا يجوز أن يكون إلا صحيحًا مبرءًا من كل عيب، إلى غير ذلك مما يغري المرء باليأس ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول.

وإذا فرضنا أن العرب أصابوا في كل ما قالوا أفترى ذلك يستدعي أن نقصد قصدهم ونحتذي مثالهم في كل شيء ونحن لا نحيا حياتهم، ألسنا الوراثين لغتهم وللوارث حق التصرف فيما يرث؟ هل تقليدك العرب وجريك على أسلوبهم يشفع لك في خطأ نحوي أو منطقي؟ كلا! إذًا فكيف يشفع لك في غير ذلك مما لا يصح في العقول ولا يتفق مع الحق، وكيف نتحاكم إلى العقل في الأولى ولا نستقضيه في الثانية؟

لا ننكر ما لدراسة الأدب القديم من النفع والعائدة وما للخبرة ببراعات العظماء قديمهم وحديثهم من الفائدة والأثر الجليل في تربية الروح ولكنه لا يخفى عنا أن ذلك ربما كان مدعاة لفناء الشخصية والذهول عن الغاية التي يسعى إليها الأديب، والغرض الذي يعالجه الشاعر، والأصل في الكتابة بوجه عام، على أنه مهما يكن فضل القدماء ومزيتهم فليس ثَم مساغ للشك في أنك لا تستطيع أن تبلغ مبلغهم من طريق الحكاية والتقليد فإن الفقير لا يغني بالاقتراض من الموسرين، ولست أقصد إلى نبذ الكتَّاب والشعراء الأولين جملة وعدم الاحتفال بهم فإن ذلك سخف وجهل، ولكني أقول: إنه ينبغي أن يدرس المرء في كتاباتهم الأصول الأدبية العامة التي لا ينبغي لكاتب أن يحيد عنها أو يغفلها بحال من الأحوال — كالصدق والإخلاص في العبارة عن الرأي أو الإحساس — وهذا وحده كفيل بالقضاء على فكرة التقليد.

وبعد، فإنه لا يسع من ورد شرعة الأدب، وعلم أنه يحتاج إلى مواهب وملكات غير الكد الدؤوب والاحتيال في حكاية السلف والضرب على قالبهم والاقتياس بهم فيما سلكوه من مناهجهم، ومن تبسط في شعر الأولين لا ليسرق منه ما يبتني به بيوتًا كبيوت العنكبوت، ولكن ليستضيء بنوره ويستعين به على استجلاء غوامض الطبيعة وأسرارها ومعانيها، وليهتدي بنجوم العبقرية في ظلمة الحياة وحلوكة العيش، وليتعقب بنظرة شعاعها المتغلغلة إلى ما لم يتمثل في خاطر ولم يحلم به حالم. أقول: لا يسع مَن هذا شأنه وتلك حاله إلَّا أن ينظر إلى حال الأدب العصري نظرة في طيها الأسف والخيبة واليأس، وكأنما شاءت الأقدار أن يذيب أحدنا نفسه ويعصر قلبه وينسج آماله ومخاوفه التي هي آمال الإنسانية ومخاوفها ويستوري من رفات آلامه شهابًا يضيء للناس وهو يحترق، ثم لا يجد من الناس أخًا حنانًا يؤازره ويعينه على الكشف عن نفسه وإزاحة حجب الغموض عن إحساسات خياله التي ربما التبست على القارئ لفرط حدتها أو غابت في مطاوي اللفظ واستسرت في مثاني الكلام.

أليس أحدنا بمعذور إن هو صرح — وبه من سائح اليأس خاطر: «يا ضيعة العمر! أقص على الناس حديث النفس وأبثهم وجد القلب ونجوى الفؤاد فيقولون: ما أجود لفظه

أو أسخفه كأني إلى اللفظ قصدت! وأنصب قبل عيونهم مرآة للحياة تريهم لو تأملوها نفوسهم بادية في صقالها فلا ينظرون إلا إلى زخرفها وإطارها وهل هو مفضض أم مُذَهَّب وهل هو مستملح في الذوق أم مستهجن! وأفضي إليهم بما يعيي أحدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون: لو قلت كذا بدل كذا لأعيا الناس مكان ندك! ما لهم لا يعيبون البحر اعوجاج شطئانه وكثرة صخوره! يا ضيعة العمر!»

سيقولون: ما فضل مذهبكم الجديد على مذهبنا القديم وماذا فيه من المزية والحُسن حتى تدعوننا إليه؟ وبأي معنى رائع جئتم؟ وما ابتكرتم من المعاني الشريفة والأعراض النبيهة؟ فتقول: قد لا يكون في شعرنا شيء من هذه المعاني الشريفة والأعراض النبيهة التي تطلبونها وتبحثون فيه عنها ولا تألون أنتم جهدًا في الغوص عليها وفتح أغلاقها والتكلف لها! وقد لا نكون أحسنا في صوغ القريض ورياضة القوافي ولكن خيبتنا لا يصح أن تكون دليلًا على فساد مذهبنا وعمقه إذا صح أننا خبنا فيما تكلفناه وهو ما لا نظنه، بل هي دليل على تخلف الطبع لا أكثر من ذلك، وعلى فرض ذلك كله فإن لنا فضل الصدق وعليكم عار الكذب ودنيئة الافتراء على نفوسكم وعلى الناس جميعًا وحسبنا ذلك فخرًا لنا وخزيًا لكم.

ليس أقطع في الدلالة على أنكم لا تفهمون الشعر ولا تعرفون غاياته وأغراضه من قولكم: إن فلانًا ليس في شعره معانٍ رائعة شريفة؛ لأن الشاعر المطبوع لا يعنت ذهنه ولا يكد خاطره في التنقيب على معنى لأن هذا تكلف لا ضرورة له، أو ليس يكفيكم أن يكون على الشعر طابع ناظمه وميسمه، وفيه روحه وإحساساته وخواطره ومظاهر نفسه سواء أكانت جليلة أم دقيقة شريفة أم وضيعة؟ وهل الشعر إلا صورة للحياة؟ وهل كل مظاهر الحياة والعيش جليلة شريفة رفيعة حتى لا يتوخى الشاعر في شعره إلا كل جليل من المعاني ورفيع من الأغراض، وكيف يكون معنى شريف وآخر غير شريف، أليس شرف المعنى وجلالته في صدقه، فكل معنى صادق شريف جليل، ألا إن مزية المعاني وحسنها ليسا في ما زعمتم من الشرف فإن هذا سخف كما أظهرنا في ما مر؛ ولكن في صحة الصلة أو الحقيقة التي أراد الشاعر أن يجلوها عليك في البيت مفردًا أو في القصيدة جملة، وقد يتاح له الإعراب عن هذه الحقيقة في بيت أو بيتين وقد لا يتأتى له ذلك إلا في قصيدة طويلة وهذا يستوجب أن ينظر القارئ في القصيدة جملة لا بيتًا بيتًا كما هي العادة فإن ما في الأبيات من المعاني إذا تدبرتها واحدًا واحدًا ليس إلا ذريعة للكشف عن الغرض الذي إليه قصد الشاعر وشرحًا له وتبيينًا.

وأنتم فما فضل هذا الشعر السياسي الغث الذي تأتوننا به الحين بعد الحين وأي مزية له؟ وهل تؤمنون به؟ وهل إذا خلوتم إلى شياطينكم تحمدون من أنفسكم أن صرتم أصداء تردد ما تكتبه الصحف؟ وهل كل فخركم أنكم تمدحون هذا وترثون ذاك؟ وأنتم لا تفرحون بحياة الواحد ولا تألمون موت الآخر؟ ما أضيع حياتكم؟!

ليس أدل على سوء حال الأدب عندنا من هذا الشك الذي يتجاذب النفوس في أولى المسائل وأكبرها ولقد كتب نقادة العرب في الشعر على قدر ما وصل إليه علمهم وفهمهم ولكنهم لم يجيئوا بشيء يصلح أن يُتخذ دليلًا على إدراكهم لحقيقته، ولسنا ننكر أن كتَّاب الغرب متخالفون في ذلك ولكن تخالفهم دليل على نفاذ بصائرهم وبعد مطارح أذهانهم ودقة تنقيبهم وشدة رغبتهم في الوصول إلى حقيقة يأنس بها العقل ويرتاح إليها الفكر، كما أن إجماع كتَّاب العرب وتوافقهم دليل على تقصيرهم وتفريطهم وأنهم كانوا يقلد بعضهم بعضًا إن لم يكن دليلًا على ما هو أشين من ذلك وأعين، غير أن هذا القلق والشك المستحوذين على النفوس لعهدنا هذا هما الكفيلان بأن يفسحا رقعة الأمل ويطيلا عنان الرجاء لأن القلق دليل الحياة والشم آية الفطنة وما يدرينا لعلنا في غد نجني من رياض هذا القلق أزاهير السكينة والطمأنينة.

شكري وحافظ

قد أثرنا أن ننشر النقد كما هو ولم نرَ ضرورة للتبديل فيه لأن رأينا لم يتغير ولكنا زدنا عليه أشياء خطرت لنا فيما بعد.

١

لا نجد أبلغ في إظهار فضل شكري والدلالة عليه، وبيان ما للمذهب الجديد على القديم من المزية والحسن، من الموازنة بين شاعر مطبوع مثل شكري، وآخر ممن ينظمون بالصنعة مثل حافظ بك إبراهيم، فإن الله لم يخلق اثنين هما أشد تناقضًا في المذهب وتباينًا في المنزع، من هذين، والضد كما قيل يظهر حسنه الضد.

حافظ رجل نشأ أول ما نشأ بين السيف والمدفع، ومن أجل ذلك ترى في شعره شيئًا من خشونة الجندي وانتظام حركاته واجتهاده، وضعف حياله وعجزه عن الابتكار والاختراع والتفنن، ولعل هذا هو السبب أيضًا في أن حافظًا لا يقول الشعر إلا فيما يسأل القول فيه من الأغراض، بيد أنه على ما به من ضيق في المضطرب، وتخلف في الخيال، كان أفصح لسان تنطق به الصحف وأقدر الناس على نظم معانيها، وتنضيد أخبارها، وتنسيق فقرها لو أن هذا مما يحمد عليه الشاعر أو أن في هذا فخرًا لأحد شاعرًا كان أو غير شاعر.

أما شكري فشاعر لا يصعد طرفه إلى أرفع من آمال النفس البشرية ولا يصوبه إلى أعمق من قلبها — ذلك دأبه ووكده — وهو لا يبالغ كحافظ في تحبير شعره وتدبيجه بل حسبه من الوشي والتطريز أن يسمعك صوت تدفق الدماء من جراح الفؤاد، وأن يفضي إليك بنجوى القلوب والضمائر، وأن يريك عيون الندى على خدود الزهر، وافترار

ضوء القمر على مكفهر القبور، ووميض الابتسامات في ظلام الصدور، وأن ينشقك نسيم الرياض، وأنفاس السحر، وأن يشعرك هزة الحنين ودفعة اليأس والأمل، وأن يغوص بك في لجج الفكر ليكشف لك:

(عن) معانٍ يود لو صاغها المرء	وحلى بها وجوه البيان
لن تراها بالرأي حتى تراها	بفؤاد موفق يقظان
طالما نالها أخو الصمت والصمـ	ـت كريم البيان جم الأمان

يتناول أبسط معاني الطبيعة والعقل وأشدها ارتباطًا بالحياة واتصالًا بالنفس ثم يصوغ لك منها شعرًا نقي المستشف، كثير الماء، جم المحاسن:

يحدث النفس بأمر الهوى	ويسأل الأرواح رجع السؤال

وعلى الجملة فإن شعره وحي الطبيعة ورسالة النفس.

وليس شعر شكري ببدعة في هذا العصر، ولكنه نتيجة طبيعية لتمادي الشعراء في المنهج القديم، ولجاجتهم في احتذاء المثال العتيق، والضرب على قالب المتقدمين من شعراء العرب، ولو لم يكن شكري لنبغ من غيره هذا الشعر الذي نقرأه له اليوم.

وكذلك يختلف أسلوبه الكتابي عن أسلوب حافظ كما تختلف أغراضهما الشعرية ومناهجهما في استفتاح أغلاق المعاني وذلك أن حافظًا شديد التعمل، مفرط التكلف، كثير التأنق وشكري يسح بالشعر سحًّا لا يسهر عليه جفنًا، ولا يكد فيه خاطرًا، ولا يتعهد كلامه بتهذيب أو تنقيح، وحافظ يكسو المعاني المطروقة الأسمال البالية، وشكري لا يبالي أي ثوب ألبس معانيه مادامت هذه صحيحة لا يقوم بينها وبين النفوس حجاز.

وبعد فإن حافظًا إذا قيس إلى شكري لكالبركة الآجنة إلى جانب البحر العميق الزاخر، وحسب القارئ أن يتأمل ديوانيهما ليعلم ما بينهما من البعد وليعرف كيف يقعد الخيال بحافظ ويسمو بشكري في سماء الفكر، وكيف يجني التقليد على الرجل ويغلق في وجهه أبواب التصرف والتفنن، فإن حافظًا قد حذا في شعره حذو العرب وقلدهم في أغراضهم وفرط عنايتهم بصلاح اللفظ وإن فسد المعنى، وشكري قد صدع هذه القيود وفكها عن نفسه، لعلمه أن المقلد لا يبلق شأو المبتكر وإنك مهما قلدت العرب فلن تأتي بخير مما جاؤوا به، ولأن له من سلامة الذوق وصدق النظر ما يريه غثاثة

هذه الأغراض القديمة الدراسة وفسادها، ولأنه وجد من سخاء خياله، وخصب قريحته، وسعة روحه خير معين له على افتراع طريقة بكر لم يبتذلها كثرة الطراق ولا عفى على رسمها القدم.

٢

كتبنا عن شكري في العدد الماضي كلمة وجيزة أحفظت بعض أنصار حافظ وأشياعه، ولقد عابونا بها على ما بلغنا، وقالوا: أجملت ذكر شكري، ومدحته أحسن مدح، وغمطت حافظًا واستهنت به، وسخرت منه. فكأن أصحابنا لم يلوموا أنَّا نقدنا شعر حافظ، ولكن لاموا أنَّا لم نتفخمه، ولم ينكروا رأينا، ولكن أنكروا استضعافنا للرجل واستصغارنا لشأنه، وهو الذي سار اسمه كل مسير، وتجاوبت بصدى ذكره المحافل، ولعمري كيف أجله ولا قدر لشعره في نفسي، وكيف أعظمه وليس عندي بالعظيم، أو أكبر شعره ولست على يقين من أنه سيبقى على الزمن الآتي.

ولقد بلغنا أن حافظًا بسط لسانه فينا وندد بنا، وتناولنا بالذم والتنقص، وهذا مظهر عجيب من مظاهر الأنانية وجنونها وشاهد صادق على ضيق الروح، وعامية النفس، لأن العظيم لا يحب المدح لذاته، ولكن لأن فيه اعترافًا بالحق الخالد والجمال الأبدي وهو لا يحب نفسه أكثر من حبه لمظاهر هذا الحق لأن فطنته لمعاني الحق والجمال تكسر من غلواء أنانيته، وليس أدل على العظمة، وسعة الروح من أن الرجل يستطيع أن يصبر على مطل الأيام وتواني الشهرة عنه وأنه لا يقبل على الناس باللوم من أجل أنهم لم يشكروا له عملًا ولم يشعروا بفائدته ولا أحسوا بالحاجة إليه، وأخلق بمن طال ذكره لنفسه أن ينساه الناس وبمن يستعجل الشهرة أن لا يظفر منها إلا بنصيب وشيك الزوال، وإذا كان طالب الشهرة لا يستلذ عمله إلا بقدر تمداح الناس له فما أخلقهم أن لا يجدوا فيه شيئًا حقيقًا بالمدح والثناء وجهل بيِّن، وغرور كبير في الرجل أن يتوقع الثناء على عمله من أجل أنه عمله، لا على قدر ما فيه من الحق والجمال.

أرى طول عهد الناس بالملق والمغالطة والمصانعة قد أنساهم حلاوة الصدق، ولكنهم خليقون أن يروضوا أنفسهم على تذوقه، فإن ذلك أجدى عليهم، وأدل على كرم الشيمة، وشرف المنزع، ونحن فلا نرى بأسًا من إرضائهم بمجاوزة الإجمال إلى التفصيل وإن كلفنا ذلك إغضاب حافظ وهو ما لا نحب؛ فإن الرجل ليس من أعدائنا وإن لم يكن على ذلك من أصدقائنا.

قلنا إن شكري أسمح خاطرًا، وأخصب ذهنًا وأوسع خيالًا، وإن سبيله غير سبيل حافظ، فهل يرى القارئ أنَّا بعدنا عن مرمى السداد، أليس شعر حافظ قاصرًا على المدح والرثاء ونظم منثور الأخبار، وصوغ مقالات الجرائد، وهل خرج حافظ عن الطريق القديم الدارس أو قال في غير ما قالت فيه العرب: هذا ديوانه في «مكتبة الإصلاح» فليبتعه من له به عهدان كان في شك مما نقول، وهل أدل من ذلك على التقليد ووهن السليقة وقصور الباع؟ وإذا لم يكن التقليد عنوانًا على العجز عن الابتكار فأي شيء أدل منه وأبلغ في إظهار العجز والقصور؟ على أنهم يقولون إن التقليد ليس بعيب ونحن نقول مهما يكن من الأمر فإنه في كل حال دليل على ضعف الخيال، وعدم القدرة على الابتداع، وفقدان الشخصية، وفنائها في غيرها … ولعلك واحد من يقول لك: إن حافظًا طرق أبوابًا من الشعر لم يُسبق إليها فقال في زلزال «مسينا» وحرب «اليابان» والحرب الطرابلسية وغيرها وفي الحوادث الجسيمة مثل قضية الزوجية! وحريق ميت غمر و«دنشواي» وغلاء الأسعار وزاد في الأوصاف وصف الجرائد ونعت البورصة والفونغراف كأنه لم يُسبق إلى ذلك أو كأن العرب لم تجعل شعرها ديوانًا لأخبارها وأيامها ووقائعها؟ هاتوا قصيدة لحافظ حقيقة بهذا الاسم نأتكم ببيت واحد من ديوان شكري يفضل كل ما قاله حافظ وأضرابه، وبعد فبماذا يفضل حافظ شكري؟ أبسرقاته التي لا تُحصى وإغاراته التي يكاد يخطتها العدم؟ أم بتشبيه بصفراء مسلولة؟ تنسي اليهود الذهبا، أم بسقم خياله الذي رين له أن يقذف بالوابور من فوق الجسور ليحض الناس على البذل لجمعية رعاية الأطفال ومؤاساتها بالمال، أم بقوله يصف الجرائد:

جرائد ما خُط حرف بها	لغير تفريق وتضليل
يحلو بها الكذب لأربابها	كـأنــهــا أول أبــريــل

وفيها من ثقل الروح، وبرود الفكاهة، وجمود الخيال، ما لا يخفى على العامي، فضلًا عن الأديب، أم بقوله ينعت الفونوغراف:

وجدوا السبيل إلى التقاطع بيننا	والسمع يملكه الكذوب الحاذق
لا تجعلي الواشين وسلك في الهوى	فلأصدق الرسل الجماد الناطق

وفيهما من السخافة والبُعد عن الغرض ما فيها، وأين يقع هذان البيتان من قول شكري في الفونوغراف:

هل علم الغريد في وكره	شأن الذي خفض من قدره
وهل درى المطرب ماذا الذي	يستحضر الملحود من قبره
يا عجبًا من ناطق أبكم	تأتلف الألحان في صدره
يستخرج اللحن بمسنونة	تزيل ذاك اللبس عن أمره
تخط في إعطافه أحرفًا	كأنها تبحث عن سره
يروي أحاديث أناس مضوا	كأنها مرت على فكره

وأنت أيها القارئ فقل أيهما أبعد غاية، وأرشق معنى، وأرق فكرًا، وألطف تخيلًا، ولكنا نقول مع شكري:

كم وردة ليس لها ناشق	يحفها الروض بوادٍ سحيق
وخامل والفضل من حظه	قد أحرجوه بالأذى والعقوق

٣

قال لي صديق: «لقد تاب حافظ عن قول الشعر، وزجر غراب غروره، فهلا أقصرت أنت أيضًا عن نقده؟» فقلت: «لئن كان حافظ قد تاب فإن الناس لم يتوبوا، وما زال فيهم من يعده في الشعراء، ويسميه شاعر النيل وشاعر الشرق، ولن أكف عنه حتى يثوب الناس إلى رشدهم ويعلموا أنه لا يعد إلا في رجال المكتبة الخديوية».

ولو كان للأدب حكومة تنتصف له من المسيء، وتكافئ المحسن لكان أقل جزاء حافظ على ما ارتُكب من الشعر أن يبتاع ما اشتراه الناس من كتبه ثم يحرقها بيده لأن شعره جناية على الأدب، وأنت فقد تعلم أن من الشعر ما يكون آثمًا، ومنه ما هو برئ صالح، أما الآثم فذلك الذي يفسد الذوق، ويعوِّد الناس الكذب، ويضلل النفوس، وشعر حافظ من هذا النوع.

وذلك لأن حافظًا ليس صادقًا في شعره، فهو يذم اليوم ما امتدحه بالأمس، وإنما نراه يفعل ذلك لأنه ضعيف الذهن لا أرى له في شيء ما، وسبيله إذا أراد أن يقول شعرًا

في (حادثة) أن يغشى مجالس أهل الحصافة ويذاكرهم الحديث، ليعرف ما ينبغي أن يكون رأيه، رغبة فيما يتبع ذلك من طيب الثناء، وجميل الذكر، ومن كان هذا شأنه فليت شعري كيف يعد في الشعراء، ألا ترى كيف أنه مدح السلطان عبد الحميد قبل الدستور ثم صرف بعده الثناء إلى رجال تركيا الفتاة وجعله وقفًا عليهم؟ وهل أدل من ذلك على أنه ليس بصاحب رأي وأنه إنما يتابع الجمهور ويجاريهم في آرائهم وأميالهم، لا لرياء في طبعه، ولكن لعجز وضعف في ذهنه، وهل أشنع من هذا الصنيع، وأفسد للنفوس، وأقتل للعقول، أو أسوأ منه في رياضة الناس على الملق والنفاق والإفك، وصدهم عن توخي الحق؟

وعلى ذكر عبد الحميد نقول إنَّا ما رأينا أفحش من غلو حافظ ومبالغته ولكن مبالغة حافظ تشف عن قصر في النظر، وعجز في الخيال، ومبالغة غيره تشف عن قوة في الذهن، وبُعد في مرمى النظر فإني ما قرأت قصيدته في تهنئة عبد الحميد بعيد الجلوس إلا استغرب عليَّ الضحك حتى خشيت على نفسي منه وأي شيء أسخف من قوله:

سلوا الفلك الدوار هل لاح كوكب على مثل هذا العرش أو راح كوكب
وهل أشرقت شمس على مثل ساحة إلى ذلك البيت الحميدي تُنسب
وهل قر في برج السعود متوج كما قر في يلديز ذاك المعصب

فقد لاحت الكواكب على خير من هذا العرش وطلعت الشمس على أبدع من ساحة ذلك البيت، وقرت ملوك لا يُقاس بهم عبد الحميد، كما لا تقاس أنت يا حافظ بشكري.

ثم تأمل بالله قوله من قصيدة يرثي بها الأستاذ الشيخ محمد عبده:

فأودى به ختلًا فمال إلى الثرى ومالت له الأجرام منحرفات
وشاعت تعازي الشهب باللمح بينها عن النير الهاوي إلى الفلوات
بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة وضاقت عيون الكون بالعبرات

من هو الشيخ عبده أو غيره حتى تميل لموته الأجرام، وتشيع من أجله تعازى الشهب، وترتج لحينه الأرض، وتضيق لمصرعه عيون الكون بالدموع؟ لقد مات النبيون والمصلحون ومات العظماء وأودى رجال السيف والقلم، والكون ما زال على عهدهم به أيام كانوا أحياء يُرزقون، ولو في الكون كله أتضن أن مبدعه يعبأ بذلك شيئًا؟ أليس

من غرور الإنسان أن يحسب أن الكون يكترث لما يصيبه وأن يتوهم أنه أكبر شأنًا من النبات والجماد وسائر الظواهر الطبيعية؟ ألا ترى أيها القارئ أن في مثل قول حافظ هذا تضليلًا للنفوس، وتدليسًا عليها وتغريرًا بها، وزجرًا لها عن أبصار الحق، وعن عرفان قدرها.

أما فساد ذوق حافظ فحدث عنه وكفى بقوله:

وأصبحت مكدن ياقوتة　　يغار منها الدر والجوهر

دليلًا على سقم ذوقه وخشونة نفسه التي أرته في منظر الدماء ما يغار منه الدر والجوهر، ولو إني كنت أجهل نشأة حافظ الأولى لكان هذا البيت وحده كفيلًا بالدلالة عليها.

وعلى ذكر هذا البيت أقول إني لا أعرف قولًا أدل على الخمول والضالة، ولا أغرى للناس بالقعود والتكلئ والإحجام عن خطيرات الأمور من قول حافظ:

أتى على الشرقي حين إذا　　ما ذكر الإحياء لا يذكر
ومر بالشرق زمان وما　　يمر بالبال ولا يخطر
حتى أعاد الصفر أيامه　　فانتصف الأسود والأسمر

لأنه ليس في انتصار اليابان ما يفخر به الهندي أو الصيني أو المصري، لأن فخر الرجل بجاره دليل على عجز همته ووهن عزيمته، وفي هذا الفخر باعث على التواكل والتخلف، وأنت أفتظن أن الفرنسي يباهي باستظهار الألماني على الإنجليزي أو الإنجليزي على الألماني، كلا! وإنما كان هذا كذلك لأن الأحوذي صاحب الهمة القصية لا يعتني إلا بما يدرك هو من الغايات على أن البيت الثاني مكرر للبيت الأول فهو حشو.

حسبنا اليوم ما أخذناه على حافظ وإنما ترنا أيها القارئ نعنى بنقد شعره لأن جناية الأديب أشنع من جناية القاتل، وليس لنا عنده كما توهم بعضهم ثأر نجزيه به فإن الرجل كما أسلفنا في كلمتنا الثانية ليس لنا بصديق ولا عدو، ولسنا نحتقره كما توهم آخرون ولكنا نحتقر شعره ونزدري مظاهر نفسه، فإن الرجل ظريف المحاضرة، مليح النكتة، عذب المحادثة، ولا عيب فيه إلا أنه يحاول أن يقول شعرًا، ويعالج ما ليس في طبعه، ورحم الله الأستاذ الإمام فإنه هو الذي ورطه وزين له هذا المحال.

٤

كتب إليَّ من لست أعرفه يلحاني أجل إني أنقد شعر حافظ زاعمًا أنه لا يمكن أن يكون قد نال ما نال من الشهرة بغير حق، وأنه كان أولى بالنقد الكاشف وغيره ممن لا يكادون يقيمون وزن الشعر، قال:

> وهؤلاء بعد خير مثال يضرب لنضوب القريحة، وتخلف الطبع، وجمود الخيال، وسقم الخاطر، إن كنت إلى هذا قصدت، أما حافظ فإن له براعات مأثورة، وأبيات سائرة، أراك تؤثر الإغضاء عنها، وتتحامى ذكرها.

إلى آخر ما ورد في كتابه.

فأما أن الشهرة ليست دليلًا على الفضل، فهذا ما لا ريب فيه، وأما غرضنا الذي قصدنا إليه من النقد فهو تصحيح خطأ الناس في أمر حافظ والناس لم يختلفوا في أن الكاشف ليس في العير ولا في النفير، وأما أن لحافظ إجادات معروفة فهذا ما نحب اليوم أن نظهر بطلانه.

قلنا إن حافظًا نكد القريحة، ونقول اليوم إنه لزمانة سليقته يلجأ إلى السرقة، وانتحال شعر الأوائل، وليس أدل من كثرة السرقات على جمود الخاطر، على أنه لا يحسن السرقة لأنه لا يعمد إلا إلى المعاني الصغيرة فيطلق يده فيها إذ كانت روحه لا تسع المعاني الجليلة، فهو كثير الإسفاف، قليل السمو، حتى في سرقاته، ويذكرني حافظ بحكاية قديمة، قالوا إن «كانوفا» كان من عادته إذا أراد أن يصنع دمية أن يعمد إلى ما حوله من التماثيل فيأخذ من واحد أنفه، ومن ثانٍ رجله، ومن ثالث يده حتى تتم له الصورة التي يريد أن يصنعها، قال حافظ:

جنيت عليكِ يا نفسي وقبلي ... عليكِ جنى أبي فدعي عتابي

وهو مأخوذ من قول المعرى:

هذا جناه أبى عليَّ ... وما جنيت على أحد

وقال:

ليت شعري هل لنا بعد النوى   من سبيل للقا أم لات حين

أخذه من قول بشار:

يا ليت شعري وقد شطَّ المزار بهم   هل تجمع الدار أم لا نلتقي أبدا

وقال:

لست أدعوك بالتراب ولكن   بـقـدود الـمـلاح والأجـيـاد
بخدود الحسان بالأعين النجل   بـتـلـك الـقـلـوب والأكـبـاد

نظر فيه إلى قول المعري:

خفف الوطأ ما أظن أديم الـ   ـأرض إلا من هذه الأجساد

ولا يفوت القارئ تأمل ما في قوله بتلك القلوب والأكباد من القلق والركاكة.
وقال:

رحم الله منه لفظًا شهيًّا   كان أحلى من رد كيد العدو

أخذه من قول الخوارزمي:

وكيف ونظرة منها اختلاسًا   ألـذ من الـشـمـاتـة بـالـعـدو

وقال:

وكنت إذا عمدت لأخذ ثار   أسلت البر بالأسد الضواري

أخذه من قول ابن المعتز:

سالت عليه شعاب الحي حين دعا　　أنـصـاره بـوجـوه كـالـدنـانـيـر

وقال:

إني فتاك فلا تقطع مواصلتي　　هبني جنيت فقل لي كيف أعتذر

أخذه من قول جميل:

فإن لم يكن قولي رضاك فعلمي　　نسيم الصبا يا بثن كيف أقول

وقال:

لا تعيبن يا شكيب دبيبي　　إنما الشيخ من يدب دبيبَا

أخذه من قول الشاعر:

زعمتني شيخًا ولست بشيخ　　إنما الشيخ من يدب دبيبَا

وقال:

وحسرة في القلب لو قسمت　　على ذوات الطوق لم تسجع

أخذه من قول صردر:

قد مر بي من صرفه حاضب　　لو مر بالورقاء لم تسجع

وقال:

ولولا سورة للمجد عندي　　قنعت بعيشتي قنع الظليم

ألم فيه بقول امرئ القيس:

ولم أن ما أسعى لأدنى معيشة   كفاني ولم أطلب قليلا من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وقال:

وتمشى السافيات بها حيارى   إذا نقل الهجير إلى الجحيم

أخذه من قول مسلم بن الوليد:

تمشي الرياح بها حسرى مولهة   حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد

وقال في وصف الأرض في حرب اليابان:

وأصبحت تشتاق طوفانها   لعلها من رجسها تطهر

أخذه بلفظه ومعناه من قول المعري:

والأرض للطوفان مشتاقة   لعلها من درن تغسل

وقال من قصيدة يمدح بها البارودي:

تيممتها والليل في غير زيه   وحاسدها في الأفق يغرى بي العدا

أخذ معنى الشطر الثاني من قول المتنبي:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي   وأنثني وبياض الصبح يغري بي

وقال منها أيضًا:

كلانا له عذر فعذري شبيبتي

أخذه من قول ابن المعتز:

وذاك أذلي في الصبا عذر   قبل أن يؤمن شيطاني

وقال:

وما الذي تخشاه لو أنهم   قالوا فلان قد غدا عبدكا

أخذه من قول مهيار الديلمي:

ما على قومك إن صار لهم   أحد الأحرار من أجلك عبدًا

هذه طائفة من سرقاته ولو كان في الصحيفة متسع لأتينا عليها جميعًا، ولكنا نرجئ البقية للأعداد الآتية، ونرجو أن يكون القراء قد آمنوا بقولنا واتفقوا معنا على أن حافظًا من ساقة أهل الشعر ومتلصصيهم وأنه لولا مؤازرة الأستاذ الإمام له وتنويهه به، وحث الناس على اقتناء ديوانه، لكان اليوم نكرة من النكرات، وغفلًا من الإغفال.

٥

ما لقيت أحدًا إلا رأيت على وجهه سمات العجب والدهشة من نقدي لشعر حافظ وإلا أخذ على قولي إن حافظًا ليس بشاعر، وأنا فلست أرى أن في قولي إن حافظًا ليس بشاعر وأنه كبعض الطيور يأوي إلى عش غيره تنقصًا له ولا زراية عليه وإلا اضطررنا أن نعد كل امرئ شاعرًا وإن لم يكن في أرث الشعر لئلا يرى في سلبه هذه الفضيلة «المشاعة على ما أرى» ذمًّا له وثلبًا! أوليس بحسب حافظ أن يكون رجلًا من أهل الوجاهة والرفعة؟، وهل من الذم في شيء أن أقول لك: أيها القارئ إنك لست بالطويل أو القصير أو إنك لا تحسن الغناء أو إنك لا تحفظ حرفًا من اللغة السريانية — وإن كانت في ظن العوام لغة الملائكة — أو أن أقول: إن راحتك أيها القارئ ليست غضة بضة كراحة هذه السيدة

المترفة أو تلك، وإن عليها أثرًا من خشونة ما تزاول من عملك! وهل تحسب أيها القارئ أن الثور الذي يجر المحراث تحت عين الشمس يعز عليه أن الكلب يرتع في القصور ويجلس على حجور السيدات أو يكون أن يكون من أجل ذلك كلبًا؟

إني ليضحكني جدًّا رغبة حافظ في أن يُعد شاعرًا وليس له ما يجعله حقيقًا بهذا الاسم، ولجاجة الناس في التغرير به وتشجيعه على الاحتفاظ بهذا اللقب، والغيرة عليه، والذب عنه، ويذكرني ذلك بحكاية رواها «هايتي» الشاعر الألماني قال: إن ملكًا من ملوك إفريقيا السود رغب إلى مصور أن يرسمه فامتثل أمره ثم أنه أمسك الريشة وأخذ يصوره غير أنه رأى وجه الملك من دلائل القلق والاضطراب ما حمله على الاستفسار منه عما يقلقه وألح عليه في الإعراب عن رغبته، فقال الملك: ليتك تستطيع أن تجعلني في الصور أبيض الوجه، فما أشبه حافظ بهذا الملك. ولنعد إلى سرقات حافظ. قال من قصيدة يرثي بها الأستاذ الإمام:

لقد كنت أخشى عادي الموت قبله فأصبحت أخشى أن تطول حياتي

أخذه من قول الشاعر بلفظه ومعناه:

كنت أخشى صرف الحمام فلما راح يحيى أصبحت أخشى حياتي

وقال:

سخروا من الفضل الذي أوتيته والله يسخر منهم في النار

أخذه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾.

وقال:

نامت بمصر وأيقظت لحوادث الأيام سعدا

أخذه من قول بشار:

إذا أيقظتك صعاب الأمو ر فنبه لها عمرًا ثم نم

وقال:

وكم حاولوا في الأرض إطفاء نوره وإطفاء نور الشمس من ذاك أقرب

أخذه من قول المعري:

ومضطغن عليك وليس يجدي ولا يعدي على الشمس اضطغان

وقال في مطلع قصيدة يرثي بها بنت البارودي:

بين السرائر ضنة دفنوك

أخذه من قول أبي تمام يرثي امرأة محمد بن سهل:

لها منزل بين الجوانح والقلب

وقال في رثاء الأستاذ الإمام أيضًا:

بكينا على فرد وإن بكاءنا على أنفس لله منقطعات

أخذه من قول الشاعر:

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

أو قول أبي تمام يرثي عمير بن الوليد:

لم يودِ منه واحد لكنما أودى به من أسودان قبيل

وقال أيضًا من قصيدته هذه:

فيا سنة مرت بأعواد نعشه　　　لأنت علينا أشأم السنوات

أخذه من قول أبي تمام:

فيا يوم الثلاثاء اصطبحنا　　　غداة منك هائلة الورود

وقال يرثي البارودي:

إن هد ركنك منكوبًا فقد رفعت　　　لك الفضيلة ركنًا غير مهدود

أخذه من قول أبى تمام:

فإن يوه في الدنيا دعائم عمره　　　فما جوده فيها بواهي الدعائم
إذا المرء لم تهدم علاه حياته　　　فليس لها الموت الجميل بهادم

وقال يذكر منزل الإمام:

عليك سلام الله ما لك موحشًا　　　عبوس المغاني مقفر العرصات
لقد كنت مقصود الجوانب آهلًا　　　تطوف بك الآمال مبتهلات

أخذه من قول محمد أبي عطاء السندي:

فإن يمس مهجور الفناء فربما　　　أقام به بعد الوفود وفود

وقال أيضًا يرثي الأستاذ الإمام:

لقد جهلوا قدر الإمام فأودعوا　　　تجاليده في موحش بفلاة

أخذه من قول محمد بن بشير الخارجي:

أقول وما يدري أناس غدوا به　　إلى اللحد ماذا أدرجوا في السبائب

وقال يرثي البارودي:

لو أنصفوا أودعوه جوف لؤلؤة　　من كنز حكمته لا جوف أخدود

نظر فيه إلى قول مويلك المزموم يرثي امرأته:

صلى عليك الله من مفقودة　　إذ لا يلائمك المكان البلقع

٦

أنذرتني أم سعد أن سعدًا　　دونها ينهد لي بالشر نهدا

ونما إليَّ من العجائب أن حافظًا يحرش بنا نظارة المعارف ويرمينا عندها بأنَّا كاتبو مقالة «حسن الاختيار» التي نشرها «عكاظ» في بعض أعداده الماضية عسى أن يصيبنا ما يكفنا عن نقد، وقد علم الناس أنَّا لا نكتب شيئًا إلا ذيلناه بتوقيعنا الصريح، فليرح نفسه حافظ فإن تعبه ضائع، وسهمه طائش، وليعلم أن ذلك لا يرجعنا عن رأينا فيه، ولا يحملنا على القول بأنه شاعر:

تمناها بجهل الظن سعد　　وما هي من مطايا الظن بعد

إن لك أن تشعر بأنك شاعر، وأن تغش نفسك إذا شئت، وأن توهمها أنك أطبع الناس، وأن الشعر راجع منك إليك، وأن أبا تمام كان يصف قلمك حين قال:

لك القلم الأعلى الذي بشباته　　تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

وينعت شعرك بقوله:

أما المعاني فهي أبكار إذا نُصَّت ولكن القوافيَ عون

وأن البحتري كان يقصدك بقوله:

لتفننت في الكتابة حتى عطَّل الناس فن عبد الحميد

وأن المتنبي كان يعني قلمك حين قال:

فصيح متى ينطق تجد كل لفظة أصول البراعات التي تتفرع

وأن الشريف الرضي كان يتنبأ بك حين قال:

لك القلم الجوال إذ لا مثقف يحول ولا عضب تهاب مواقعه

وأن السري الرفاء كان يفكر فيك لا في نفسه حين قال يصف قصيدة:

نظام من السحر الحلال مخيل لسامعه أن الكواكب تنظم

وأن مهيارًا لم يصف إلا قلمك حين قال:

نفثاته السحر المبلبل لا كما خبرت أن السحر صنعة بابل

وإلا دواتك بقوله:

لها من سبيك التبر ثوب مورس ووجه من العاج النصيع وسيم

وأن صردر كان يتصور دواتك حين قال:

يا حبذا هي والأقلام واردة فيها وصادرة سحم المناقير

وأن الأبيوردي كان ينطق بلسانك حين قال:

كلماتي قلائد الأعناق   سوف تفنى الدهور وهي بواق

وأنك أنت حامل لواء الشعراء ... لا امرؤ القيس، لك أن تتصور كل ذلك إذا خلوت إلى نفسك في المكتبة الخديوية وأحاطت بك دواوين الشعراء وأقبلت جماجمهم تمسح رأسك وتفتل منك في الذروة والغارب رجاء أن تأمر باستنساخ شعرها وصيانته من أيدي البلى، ولكنا لا نرى لك علينا سلطانا يضطرنا إلى مصانعتك كما اضطرت هذه الجماجم أن تحمل نفسها على مكروهها.

على أني أيها القارئ أحب أن أقر لحافظ بشيء من الشاعرية ولكني كلما حاولت ذلك طلع عليَّ مثل هذا البيت:

فانشأوا ألف كتاب وقد علموا   أن المصابيح لا تغني عن الشهب

فأخرس؛ لأن أطفال هذه الكتاتيب تعلم أن المصابيح تغني عن الشهب، ولكن الشهب لا تغني عن المصابيح، وليت اختراع حافظ يصح، إذًا لكافأته الحكومة ببعض ما تنفقه على إنارة الطرق وكافأة الناس بنصف ما يبتاعون به صفائح الغاز أو ربعه؛ لأن في البيوت زوايا لا يصل إليها نور الشهب.

وليت حافظًا كان حاضري وقد التَفَّتْ بي أرواح شعراء العرب وانتبرت كل روح ديوانها وأخذت تخطب محتجة على ما سلبه حافظ من معانيها، وانتحله من أفكارها، ومسخه من شعرها، إذًا لسمع روح الشريف تقول بعد ديباجة طويلة أبانت فيها فضلها وسبقها ومكانتها:

لنا كل يوم منه ذئب عمرد   دم الشعر في أنيابه والبراثن

فقد أخذ حافظ بيتي:

تساقيْنَا التذكر فانثنينا   كأنا قد تساقينا الطلاء

فقال:

سقاني في منادمة حديثًا نسينا عنده بنت الكروم

وقلت:

أخي لا رغبت عني ولا أذني من بعد يومك في رأي ومستمع

وكررته في موضع آخر فقلت:

فبعدًا لطيب العيش بعد فراقكم فلا أسمع الداعي إليه ولا دعا

فأخذ المعنى وقال:

أبعد عثمان أبغي مأربًا حسنًا من الحياة وحظًّا غير منكود

وهنا قاطعتها روح مهيار وقالت إنه أخذ هذا المعنى من قولي:

أبعد ابن عبد الله أحظى براجع من العيس أو أسى على أثر ذاهب

وقلت أيضًا:

سلام على الأفراح بعدك أنها وإن عشت ليست أربة من مآربي

فسرقة وقال:

فأمسكا الراح إني لا أخامرها وبلغا الغيد عني سلوة الغيد

فقامت على أثر ذلك ضجة شديدة وصارت كل روح تدعي المعنى، فقلت إنه سرق منكما فسكنتا واستأنفت روح الشريف الكلام فقالت، وقلت:

كنتم نجومًا لدى الدهماء زاهرة   تضئ منها الليالي السود والدرع

فأخذه وقال:

لقد كنت فيهم كوكبًا فى غياهب

وقلت:

رزآن يزدادان طول تجدد   أبد الزمان فناؤها وبقائي

فأخذه وقال:

إني ليحزنني إن جاء ينشده   داعي المنون وإني غير منشود

فعادت روح مهيار إلى مقاطعتها وقالت بل إنه أخذه مني أنا فقد قلت:

إذا كان سهم الموت لا بد واقعًا   فيا ليتني المرمي من قبل صاحبي

ولكني حكمت للشريف في هذه المرة ثم قام التميمي فقال وأنا أيضًا قلت:

أما القبور فإنهن أوانس   بجوار قبرك والديار قبور

فأخذ المعنى وقال:

لبيك يا مؤنس الموتى وموحشنا   يا فارس الشعر والهيجاء والجود

فنهض أبو تمام فقال إنه أخذ الشطر الثاني من قولي:

يعزون عن ثاوٍ تعزى به العلى ويبكي عليه اليأس والجود والشعر

وقلت أيضًا:

إذا ظلمات الرأي أسدل ثوبها تطلع فيها فجره فتجلت

فأخذ المعنى وقال:

إذا مس خد الطرس فاض جبينه بأسطار نور باهر اللمعات

وقلت:

ليهن امرؤ يثني عليك فإنه يقول وإن أربى ولا يتقول

فأخذه وقال:

عذب القريض قريض بات يعصمه ذكر ابن توفيق عن لغو وعن كذب

ثم تلاه الهمذاني فقال وأنا أيضًا قلت:

الذنب للأيام لا لي فاعتب على صرف الليالي

فأخذه وقال:

لا تلم كفي إذا السيف نبا صح مني العزم والدهر أبى

ثم قام آخر وقال وقد سرق مني قولي:

فالناس مأتمهم عليه واحد في كل دار رنة وزفير

فقال:

ففي الهند محزون وفي الصين جازع وفـي مـصـر بـاكٍ دائـم الـحـسـرات

وكرره في موضع آخر فقال:

أنى حللت أرى عليك مأتمًا

وتلاه آخر فقال إني قلت:

فـلـلـه در الـدافـنـيـك عـشـيـة أما راعهم مثواك في القبر أمردا

فأخذه وقال:

تركوا شبابك فيها نهبًا للبلى واهًا لغض شبابك المتروك

وتلاه الجرمي فقال، وأنا قلت:

أحقًّا عباد الله أنا لست راثيًا رفاعة بعد اليوم إلا توهما

فأغار علي وقال:

فوا لهفي والقبر بيني وبينه على نظرة من تلكم النظرات

ثم انفضت الجلسة.

٧

كنت أحسب أن الخلف بيني وبين الناس في أمر حافظ قد ذهب كل مذهب، وإني على الباطل وغيري على الحق حتى لقد هممت أن أعتذر لحافظ بك عن نقدي لشعره، واستسخافي لنظمه، واستضعافي لسليقته، ولكني استحييت من أن ألقي إليه معاذيري

في صحيفة يطالعها كل هذا السواد الأعظم، وأشفقت مما عساه يتبع ذلك من تضاحك الناس بي، وسخرهم مني، فقلت اكتب إليه كتابًا «خصوصيًّا» افتتحته بما يأتي:

> الحمد لله الذي هداني إلى الحق، وبصَّرني وجوه الرشد وأوضح لي معالم القصد، والصلاة والسلام على خير بريته، والمصطفى من أمته، محمد سيد المرسلين، وعلى أصحابه الخلفاء الراشدين، وآله الأخيار أجمعين، وبعد فكفى بالجهل داء، وبالغباوة محنة وبلاء، وبخلوص النية شفيعًا، وبالاعتذار من فارط الذنب …

وهنا أعيتني السجعة، فوضعت القلم وجعلت أفكر في كلمة صالحة، فمرت بالخاطر ألفاظ كثيرة أذكر من بينها «رجوعًا» و«نزوعًا» و«تقريعًا» ولكني لم أستملح واحدة منها، ففتحت ديوان بعض الشعراء المكثرين عند قافية العين كما يفعل حافظ وأشباهه إذا نظموا لعلي أظفر بطلبتي ولكن رائد التوفيق اخطأني في هذه المرة أيضًا، فيئست من كتابة الاعتذار ومما كنت أرجوه من الصفح، وأتوقعه من الغفران، وإني لفي هذه الحيرة الشديدة وإذا بعدة رسائل قد جاءتني ففتحت الأولى وبي من الكسل والملل ما لا يخفى عن القارئ فإذا كاتبها يقول بعد الديباجة:

أراك قد أطلت في إيراد سرقاته (يعني صاحبنا بالطبع) حتى ضايقتنا وأمللتنا، حسبك ما أخذت عليه من ذلك، لأنه ليس بالشاعر المكثر حتى تغفر له كثرة سرقاته من أجل كثرة حسناته … وعلى أنه حتى في اعتذاره من إقلاله لم يأنف من السرقة والانتحال ألا ترى كيف أخذ قوله:

وأنشد أشعاري وإن قال حاسد نعم شاعر لكنه غير مكثار

من قول البحتري يرد على عبيد الله بن طاهر:

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

وأخذ البيت الذي بعده وهو:

فحسبي من الأشعار بيت أزينه   بذكرك يا عياس في رفع مقداري

من قول الشريف الرضي يمدح الطائع:

قليل مدحك في شعري يزينه   حتى كأن مقالي فيك تغريد

أقول كفى ما أظهرت من سرقاته وإنما ينبغي أن تكشف للناس عن فساد معانيه وقلق أسلوبه وركاكة تعابيره فإن الناس «يتهمونه» بحسن الديباجة، وانسجام التراكيب، وسلامة الذوق في الصناعة، ولا يصدقون أنه قائل هذا البيت:

أرى سمو خديوينا وقد بسطت   بالعدل والبذل يمناه ويسراه

وليت شعري أين كانت فصاحته وبيانه وذوقه حين قال «سمو خديوينا» وأين كانت يقظته وفطنته وذكاؤه وعلمه حين قال:

أروني نصف مخترع!   أروني ربع محتسب!

فإنَّا ما علمنا أن في العالم نصف مخترع ولا ربع محتسب وما يدرينا لعله يقول بعد ذلك ثلث فيلسوف وسدس وطني وسبع شاعر وعُشر كاتب وخُمس رجل، وما الذي منعه أن يكتب البيت هكذا:

أروني ١/٢ مخترع!   أروني ١/٤ محتسب!

وعلى أن البيت بعد لا يساوي واحدًا «صحيحًا»!

وما عساك تقول إذا سمعت قوله في مطلع قصيدة يمدح بها الجناب العالي ويهنئه بعيد الفطر:

مطالع سعد أم مطالع أقمار   تجلت بهذا العيد (أم تلك أشعاري)

فإن في قوله (أم تلك أشعاري) من السماجة وسقم الذوق والغرور مالا يُطاق، وليت شعري أكان حافظ يمدح الجناب العالي أم يفاخره ويتبجح عليه بقوله من هذه القصيدة بعينها:

كذا فليكن مدح الملوك وهكذا يسوس القوافي شاعر غير ثرثار

إلى آخر ما كتب هذا الناقد الثرثار، غير إني لا أكتمك أيها القارئ أن هذه الرسالة أعادت إليَّ ثقتي بنفسي، وأذهبت عني القلق والاضطراب فقلت أطوي كتاب الاعتذار الذي كان العزم أن أرسله لحافظ وأنشر هذه الرسالة.

تم فضضت الرسالة الثانية فإذا فيها سؤال هذا نصه:

«ماذا يعني حافظ بقوله:

رأيت فيها بساطًا جل ناسِجُه عليه فاروق هذا العصر يختالُ
بمشيةٍ بينَ صَفَّي حكمةٍ وتُقًى يحبها الله لا تيهٌ ولا خالُ؟»

والجواب على هذا — بعد مراجعة البيتين — هو إني لا أظن حافظًا يعني شيئًا، وإنما هي ألفاظ مرصوفة لا يعلم إلا شيطانه البليد الذي وكله به إبليس كيف وفق بينها، أما الذي أعلمه أنا فهو أنه أراد أن يمدح الأستاذ الإمام ويصف حضرته كما يزعم شارح الديوان، وإن كنت لا أفهم من البيتين إلا أنه قصد إلى هجائه، والتهكم به، والسخرية منه، لأنه يقول إنه رأى في دار الأستاذ بساطًا جل ناسجه (اعتذر للسائل من عجزي عن تفسير قوله جل ناسجه!) وأنه رأى الأستاذ الذي هو عمر هذا العصر يتبختر على هذا البساط ويرفع يديه ويضعهما في المشي اختيالًا (وهو المفهوم من قوله يختال) وأنه كان يمشي بين صفين صف حكمة، وصف تقى، كما يمشي الضابط بين صفوف الجنود، وأن الله يحب هذه المشية التي ليس فيها لا تيه ولا خيلاء (مع أنه قال إنه رآه يختال) هذا ما أفهمه وهي صورة مضحكة جدًّا إذا كان الغرض منها المدح، ومن لي بمن يعلمني هذه المشية التي يحبها الله؟!

٨

أيها القارئ: ألم تشهد مرة ليلة عرس وقد ارتقى بعضهم كرسيًّا وجعل يتنطع بفضول الكلام، ويتكثر بلغو المقال، ويرسل على الناس طوفانًا من الهذر والهراء ويقرع آذانهم بمثل هذا الشعر:

إني أرى عجبًا يدعو إلى عجب — الدهر أضمره والعيد أفشاه
هل ذاك ما وعد الرحمن صفوته — روض وحور وولدان وأمواه
أم الحديقة ذات الوشي قد جليت — في منظر يستعيد الطرف مرآه
أرى المصابيح فيها وهي مشرفة — كأنها النور والوسمي حياه
أرى بني مصر تحت الليل قد نسلوا — إلى سعود به ضاحٍ محياه
أرى على الأرض حليًا قد نسيت به — حلي السماء وحسنًا لست أنساه

ولمن تظن هذا الشعر الذي أوردته بكرهي؟ أخشى أن أقول لحافظ فتقول إني أقوله مالم يقل، ولكني أقسم لك بكل محرجة من الإيمان، مؤكدة من الأقسام، وبكل ما يحلف به البر والفاجر أنه له.

سيقول بعض أنصاره إنه قال هذا الشعر في أول نشأته فليس بمستغرب أن يكون تافهًا بشعًا في الذوق، ولكن انظر ما قال بعد أن بلغ كمال البنية والعقل، فليكن ما تريدون، قال حافظ في الصفحة الثامنة والتسعين من الجزء الثاني من ديوانه بعد أن بلغ كمال البنية والعقل، وارتفع عن سن الحداثة، وصار عليما بأسرار اللفظ واشتقاقه عارفًا بفصيحه وركيكه، ومأنوسه وغريبه، وبعد أن «أغرى أقلامه بالغوص على المعاني» حتى:

شكى عمان وضج الغائصون به — على اللآلي وضج الحاسد الشابي

يمدح الجناب العالي:

أغلبت بالعدل ملكًا أنت حارسه — فأصبحت أرضه تُشرى بميزان
جرى بها الخصب حتى أنبتت ذهبًا — فليت لي في ثراها (½ فدان)

بحقي عليك يا حافظ، وبما لي عندك من حرمة، لتريني هذا الميزان الذي أصبحت الأرض تُشرى به. إنه لم يبقَ عليك إلا أن تقول إنها تُباع بالرطل كاللبن والجبن؟ ولتقولن لي هل كنت تمدح الجناب العالي أم تمازحه وتضاحكه، وهل من أدب المديح أن تذهب مذهب الهزل، في موقف الجد، وأن تجعل ختام قصيدتك هذا البيت:

هذا هو الملك فليهنأ مملكه   وذا هو الشعر فلتنشده أزماني

كأنك تجاذبه حبل الفخر وبينك وبينه على ما أعلم.

أبعَدُ مما بين بصري والحرم

أخلق بمن كثر ذكره لنفسه أن ينساه الناس، وأنت أيها القارئ أتظن أن روفائيل كان يفكر في نفسه حين صور العذراء وولدها، أو أن شكسبير حين كتب هملت وعطيل كان يفكر في سواهما أو أن ممثليهما يكترثان لجمهور النُّظَار والمتفرجين؟ كلا، فإنه ينبغي لمن يريد أن يكبر في عيون الناس أن يتضاءل أمام نفسه.

سيقول البعض إنه يسمت سمت العرب ويجري على أسلوبهم، ولكن العرب قد ذهبوا في سبيل العصور الخالية ونحن اليوم في عصر له آدابه ومطالبه وليس ينبغي لنا أن نقلدهم، وإن كنا نجلهم ونعظمهم وإنما مَثل من يقلدهم مَثل الساجد أمام دمية خُفيت معارفها، وطُمست محاسرها، ولم يبقَ منها إلا الحجر الذي نُحتت منه، وإلا المصباح المعلق فوقها، أو مَثل من يهب قلبه لامرأة حطمتها السن حتى أصبحت لا يحمل بعضها بعضًا.

وقال حافظ:

أغمضت عينيك عنها وازدريت بها   قبل الممات ولم تحفل بموجود

فأخطأ في قوله ازدريت بها لأن الفعل يتعدى وليست به حاجة إلى حروف الجر فهل لا يعرف حافظ الفرق بين اللازم والمتعدي وأي فائدة في قوله «قبل الممات» فهل رأى حافظ أحدًا من الناس يحفل بعد موته بشيء حتى خاف اللبس وأراد أن يجتنبنه بقوله قبل الممات؟ ما أكثر غرائب حافظ لكأني به لا يفهم الموت ولا يعرف الفرق بينه وبين الحياة، لولا إني أحب له طول العمر ليقف على حقيقة أمره وليعلم أنه ليس من

الشعر ولا قلامة ظفر لدعوت الله أن يذيقه الموت حتى يجربه ويعلم أنه كان مخطئًا حين قال: «قبل الممات» فلا يعود إلى أمثال هذه السخافات! نعود إلى ما كنا فيه فنقول: إن حافظًا كثير الخلط بين الأضداد وإني ما قرأت له قصيدة إلا رأيت فيها مثلًا لذلك كقوله:

هبو الأجير أو الحراث قد بلغا حد القراءة في صحف وفي كتب

فإن قوله: قد بلغا من مستغربات الزمان، وذلك أنه جعل «أو» بين الأجير والحراث فكان ينبغي أن يقول: (بلغ) وقد كان يجوز له أن يقول: بلغا لو أنه عطف بالواو لا بأو ولكن حافظًا كما قلنا: لا يعرف فرق ما بين الواو وأو.

ومن أمثلة هذا الخلط قوله يهنئ شوقي بك للإنعام عليه برتبة:

قد كان قدرك لا يحد نباهة وسعادة فغدا بها محدودا

ما ترى في رجل يريد أن يمدحك فيقول لك: إن قدرك ونباهتك وشرفك وسعادتك لم يكن لها حد تقف عنده ولكنها الآن أصبحت محدودة لا تجاوز حدًّا بعينه؟ أليس هذا أشبه بالذم منه بالمدح، وأقرب إلى الهجاء والطعن؟ أليس هذا دليلًا على أن حافظًا يحسد شوقي على منزلته وينفس عليه أدبه وعبقريته ويتمنى لو كان له مثل طبعه وسليقته وهل الحسد دليل على سعة الروح وعظم الثقة بالنفس واحتقار المظاهر اللذين هما نتيجة لعظم الروح وجلال النفس.

٩

أنشر في هذه المقالة الرسالة الثالثة برًّا بالوعد، ووفاءً بالعهد، وقد جاءتني من صديق أظنه توقع أن أنشرها لما فيها من صدق النظر، ودقة الفكر، وسلامة الذوق، كما فعلت بغيرها فسألني أن لا أعلن اسمه إذا خطر لي أن أذيع ما فيها من النقد، قال:

> أنا كما تعلم صديق حافظ، ولست أحب أن أوغر صدره عليَّ فإنه على سخافة شعره، لطيف ظريف، وليت شعره كحديثه، ولكنه يتكلف في شعره ولا يتكلف في حديثه، ولعل هذا هو السبب في ثقل ظل الأول وخفة روح الثاني.

ثم انتقل من ذلك إلى الكلام على شعره فقال:

كأن بحافظ قد أدرك أنه شعرور متكلف ينظم بالصنعة (ليت شعري ماذا يقول حافظ عني إذا قرأ قولي إنه شعرور وعلم أن صديقه الذي لا يستريب به أول من وصفه بذلك وأطلق عليه هذا اللفظ، لا أدري ولكني أرجوك مرة ثانية أن لا تذيع اسمي إذا أذعت رأيي؟) أقول كأني به قد عرف أنه ليس من الشعر في شيء فهو لاينفك يتنازل لكل شاعر يظهر عن ملكه الذي اغتصبه، فقد قال لما صدر الجزء الأول من ديوان شكري:

شهدت بأن شعرك لا يجارى وزكيت الشهادة باعترافي
لقد بايعت قبل الناس شكري فمن هذا يكابر بالخلاف

وقال يقرظ ديوان الرافعي:

وهذا الصولجان فكن حريصًا على ملك القريض وكن أمينا

كأن هذا المسكين لا عمل له إلا أن يبايع الشعراء ويشهد لهم بالسبق والمزية، أو كأنه فطن إلى أن ملكه هذا أسمى «فتنازل عنه في حياته قبل أن يُنزله عنه الموت بكرهه».

وعلى ذكر الموت والحياة أرجوك (لأني كما أسلفت صديق حافظ) أن تهبه ثلثمائة عام من خلودك — كما فعل فولتير — فإن حاجته والله إلى يوم واحد لشديدة على أن يفسر لك هذا البيت:

ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ذر الرماد بعين الحاذق الأرب

فهل حسب جنابه أن الرماد المذرور في عين الحاذق الأرب لا بد أن يكون أكثر من الرماد المذرور في عين الأبله السخيف حتى تَمثل به أو أن عين الحاذق أوسع من عين الغبي، وهذا البيت أيضًا:

ومن يطل على الأفلاك يرصدها بين المناطق عن بعد وعن كثب

ليس في العالم طفل لا يعلم أن علماء الأفلاك لا يرصدونها إلا عن بُعد فهل رأى جنابه أحدًا صعد في طيارة ورصد الأفلاك عن قرب، إن الوقت الذي تطير فيه الناس بين الكواكب لم يأتِ بعد … وهذا البيت أيضًا:

متى نراه وقد باتت خزائنه كنزًا من العلم لا كنزًا من الذهب

تضحكني جدًّا هذه الغفلة من حافظ فقد أراد أن يغني بلدنا فأفقره، وذلك لأنه تمنى أن يرى خزائنه ملأى من العلم فارغة من الذهب، وليت شعر حافظ أي خير في العلم إذا لم يكن لدينا إلى جانبه مال نستدر به منافعه ومرافقه! لا خير مطلقًا كما أنه لا خير في ما يعرف حافظ من مفردات العربية ما دامت خزانة معانية فارغة، ومن غفلة حافظ قوله:

لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا كأننا فيك لم نشهد ولم نغِب

أراد أن يقول لا نحن موتى ولا نحن نشبه الأحياء فقال ولا الأحياء تشبهنا وهذا يشبه قول القائل «أما في عقلهم رأس» أو قول القائل «مطلي به القار»، يريد «مطليًا بالقار» أو قول الآخر:

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

أقول هب حافظًا ثلثمائة عام من خلودك فإن حاجته اليوم إلى الخلود أشد من حاجته إلى غيره، فإن أدركك الحرص فأعطه مائة، واجمع من العقاد وشكري مائتين، وفي مَرْجُوِّي أن لا تضن عليه بهذا الرفد الضئيل والسلام.

أشكر لصديقي ظنه بي وثقته بكرمي ولكني لا أستطيع أن أصل رجلًا يقول:

ولا تنسَ من أمسى يقلب طرفه فلم ترَ إلا «أنت» في الناس عيناه

فإن طلاب الجزء الثالث من كتاب النحو يعلمون أن الصواب أن يقول (إلا إياك) أو (إلاك) لا إلا أنت (راجع باب الاستثناء) ولا يأنف أن يقول:

فما مطوقة قد نالها شرك عند الغروب إليه ساقها القدر
باتت تجاهد همًّا وهي آيسة من النجاة وجنح الليل معتكر
وبات زغلولها في وكرها فزعًا مروعًا لرجوع الأم ينتظر
مني بأسوأ حالًا حين قاطعني هذا الصديق ... إلخ

فإن قوله في البيت الأول (عند الغروب) لا معنى له فهل كان في بعض أيامه بومة أو غرابًا فعلمته التجربة أن الوقوع في الشرك عند الغروب أصعب منه في العصر، أو في الظهر، أو في منتصف الليل، هذا إلى أنه أخطأ في قوله لرجوع الأم ينتظر والصواب حذف اللام وإسقاطها من رجوع لأن الفعل متعدٍ.

ولكنه كما قلنا في المقال السابق لا يعرف الفرق بين اللازم والمتعدي ثم إن الفزع والمروع بمعنى واحد فكيف أمنحه يومًا واحدًا! على أن الأبيات مسروقة من قول المجنون:

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تعالجه وقد علق الجناح
لها فرخان قد علقا بوكر فعشهما تصفقه الرياح
... ...
فلا بالليل نالت ما ترجي ولا بالصبح كان لها براح

١٠

لا تزال الرسائل تأتيني ممن أعرف وممن لا أعرف كأني أهاجم حصنًا منيعًا وأنا وإن كنت في غنى عن هذه الأمداد لأن هذا الحصن قاعدته من الرمل وآجره من الهواء إلا أني على ذلك أشكر لمن يكاتبوني تفضلهم بمؤازرتي وتبرعه بمحالفتي وسأنشر ما يأتيني من الرسائل اعترافًا لأصحابها بالفضل وإليك الرسالة الرابعة، قال كاتبها الفاضل بعد الديباجة:

أليس من التطفل أن يكتب حافظ في مسألة الزوجية أن يتدخل فيما لا يعنيه لأن المسألة شخصية لا يجوز لأحد أن يتناولها بقلمه، ثم هي بعد ليست مما يقال فيه الشعر وأي شأن لحافظ في جنون صاحب المؤيد ببنت النبي أو ببنت غيره من الناس، وهل حرم الله على الناس أن يعشقوا بنات النبي ﷺ؟ ولماذا «يضج العرش وحاملوه ويضج قبر النبي ﷺ» من أجل ذلك؟ وماذا على حافظ من كل ذلك، وماذا يعنيه إن كان المؤيد لصيقًا ببيت الرسول ﷺ أو غير لصيق به؟ هل هو موكل بحراسته وهل ورد في الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال «آتينا حافظًا حراسة بيتنا؟» أليست هذه القصيدة أدخل في باب الرقاعة منها في باب الشعر؟

وهذه هي الرسالة الخامسة:

سيدي

كن عذيري إذا أنا أخذت عليك واحدة في نقدك شاعر النيل — حافظ — فليس من شروط النقد الصحيح لا ولا من العدل أن تعدد سقاط الرجل وسرقاته وتغفل حسناته … فإنه مهما جردنا الرجل من الشاعرية فإن له على الرغم من ذلك شعرًا جيدًا عذبًا وخواطر مستحدثة رائعة … وأين أنت من قصيدته التي بعث بها إلى «البابلي» يعاتبه بها ويتودد إليه فيها والتى لو قرأها ابن الرومي لخجل من همزيته التي يقول فيها:

يا أخي يا أخا الدماثة والرقـ ـة والظرف والحجا والذكاء
أنت عيني وليس من حق عيني غض أجفانها على الأقذاء

أعني قصيدته التي يقول في مطلعها:

أدلال ذاك أم كسل أم تناسٍ منك أم ملل

والتى يقول في ختامها:

أم وشى واشٍ إليك بنا فاحتواك الشك (يا بطل)؟
يا صديقي لا مؤاخذة أنت يا ابن البابلي (... لُ)

فما عساك قائل بعد (يا بطل)؟ أو لم يبرز الرجل في النكتة على «الفار» والسيد قشطة وكامل الأصلي؟

أقول إن شرًّا من قوله يا بطل وأفظع وصفه لصديقه (بالخول) وإن كان قد حذف الخاء والواو ولم يبقِ من الكلمة إلا اللام، ولكن القارئ لا يعيبه أن يفهم المراد؟ وشر من كل ذلك أن ينشر هذه القصيدة مع سائر شعره، ولكن الآداب في مصر غير مرعية! وإلا فأي شيء أهتك لستر لحياة وأخدش لوجه الأدب من قوله يا خول؟

على أنَّا لا نريد أن نحاسب حافظًا على نكاته العامية، وإنما نريد أن نظهِر للناس أن جَده ليس خيرًا من هزله، قال حافظ:

وافى كتابك يزدري بالدر أو بالجوهر

فإن قوله يزدري بالدر خطأ والصواب يزدريه وقد وقع في هذا الخطأ في موضع آخر ونبهنا عليه:

وقال حفظه الله:

يا همامًا في الزمان له همة دقت عن الفطن

فإن قوله دقت عن الفطن من المضحكات وذلك لأن الهمة التي تدق عن الفطن لا بد أن تكون ضئيلة جدًّا لا تبين للمتوسم وهو يريد أن يصفها بالعظم، ولكن حافظًا كما قلنا غير مرة شديد الغفلة إذا أراد الذم مَدَح، وإن أراد المدح ذم. انظر قوله للإمبراطورة يوجيني:

إن يكن غاب عن جبينك تاج كان بالغرب أشرف التيجان
فلقد زانك المشيب بتاج لا يدانيه في الجلال مداني

فقد أخطأ في قوله غاب عن جبينك لأن التاج لا يكون على الجبين، ولكن فوق الرأس وبين الرأس والجبين بون، وأخطأ في ظنه أن في المشيب عوضًا من التاج وإنما المشيب يريد الفناء ورسول الموت وأي شيء أبغض عند النساء من المشيب، ولكني لا أظنه يفهم شيئًا من ذلك، وقال أيضًا:

أو كان (في) ظبي الحمى مغرمًا   أمـا لـهـذا الـظـبـي مـن مـرتـع

والصواب أن يستبدل (في) بالباء لأنه يقال مغرم بكذا ولا يقال مغرم فيه وقال أيضًا:

وعين اليم تنظر للبخار   بنظرة واجد قلق الرجاء

أخطأ في قوله بنظرة واجد والصواب حذف الباء، وبعد فمن لي بمن يسأل حافظًا عن هذه العين التي استعارها للبحر؟ ومتى كان للبحر عيون كعيون السماء مثلًا؟ ومن لي بمن يقول لي لماذا ينظر اليم إلى البخار نظرة واجد قلق الرجاء؟ إلا أن حافظًا لا يزال يأتينا في كل يوم بما لم يُسبق إليه من السخافات، وقال:

هذا هو العمل المبرور فاكتتبوا   بالمال إن اكتتبنا فيه بالأدب

ليس أثقل على النفس من قوله اكتتبنا ولكن حافظًا لا يعرف الفرق بين همزة الوصل وهمزة القطع، ألم يكن خيرًا من ذلك أن يقول (أنَّا) اكتتبنا.

وقال يمدح المويلحي:

لك في دمي حق أردت وفاءه

فهل للمويلحي عنده ثأر؟ وإلا فماذا يعني بقوله في دمي؟ لست أدري ولا المنجم يدري؟ ولا حافظ نفسه فيما أظن؟ لقد كان الصواب أن يقول في ذمتي وقال أيضًا:

لئن غدا الدهر بنا مدبرًا   لا بد للمدبر أن يقبلا

من أعلم حافظًا أن المدبر لا بد أن يقبل؟ هل يقبل الشباب بعد ذهابه، وهل يعود الأمس، وهل يحيا الميت وهل وهل؟ أم تراه أخذ ذلك من حركات الطابور.

١١

بلغنا أن حافظ بك إبراهيم يتوعَّدنا ويزعم أن كلمة تخرج من فيه تكفي لطردنا من النظارة، أو إحراجنا فيها على القليل، ونحن لا يعنينا هذا القول، ولا يفزعنا هذا الوعيد، وما كان يميلنا تهديده عن رأينا فيه أو يمنعنا من إعلان سخافاته وإظهار المخزيات المنديات التي جاء بها في شعره، وإلا فإنَّا نعلم مكانته من صاحب العطوفة ناظر المعارف ولا نجهل جاهه العظيم جدًّا جدًّا، ولو كنا نتخشى شيئًا لما أقدمنا على نقد شعره، وهبه استطاع أن يلحق بنا ضررًا فهل ينفي ذلك أنه ليس بشاعر، ولكن وزَّان تفاعيل، ومقطع أبيات، وأنه أخطأ أفحش الخطأ في قوله من قصيدته في حريق ميت غمر:

رب إن القضاء أنحى عليهم فاكشف الكرب واحجب الأقدارا

وذلك أنه كان ينبغي أن يجعل «الأقدار» موضع «القضاء» والقضاء موضع الأقدار، لأن الأقدار هي التي تقدر القضاء، فإذا انحى القضاء على قوم لم يغنِ حجب الأقدار شيئًا وإنما يجدي حجب القضاء لو كان إلى ذلك سبيل، وفي قوله من القصيدة بعينها:

غشيتهم والنحس يجري يمينًا ورمتهم والبؤس يجري يسارا

لأن الصورة المودعة في البيت مضحكة وأغلب الظن أنه أخذها من حركات «الطابور» وأوامر اليوزباشية وأي شيء أسخف من قوله النحس يجري يمينًا والبؤس يجري يسارًا؟ ولماذا كان هذا كذلك؟ أليس هذا أشبه بالجنود الفارة الهاربة من وجه أعدائها؟ على أن الشطر الثاني في معنى الأول فهو إذًا حشو وتكرار، وفي قوله:

أكلت دورهم فلما استقلت لم تغادر صغارهم والكبارا

لست أدري لماذا كان هذا الترتيب؟ هل حسب حافظ أن كل شيء يشبه نظام الجيوش.

فإنه إذا صح ما يقول فقد كان ينبغي أن تأكل النار الناس ثم تأكل بعد ذلك دورهم، وإلا فإنه لا يعقل أن يكون الناس قد انتظروا في دورهم حتى أكلتهم النار، على أنه ليس من الضروري إذا احترقت البيوت أن يحترق سكانها وأيضًا، وفي قوله:

أخرجتهم من الديار عراة حذر الموت يطلبون الفرارا

فإني لا أفهم لماذا أخرجهم من دارهم عراة لا ثياب على أجسامهم، هل حرقتها النار أيضًا؟ وهل ظن أن احتراق الدور يستلزم احتراق ثيابهم، على أن في البيت خطأ آخر وذلك أن خروجهم من الديار هو فرار فلا معنى لقوله بعد ذلك إنهم يطلبون الفرار، ثم كيف يوفق بين قوله إنهم خرجوا يطلبون الفرار حذر الموت (أي إنهم أحياء) وقوله في البيت الذي قبله إن النار لم تغادر صغارهم والكبارًا (أي إنهم ماتوا جميعًا)، وفي قوله أيضًا:

أيها الرافلون في حلل الوشــ ــي يجرون للذيول افتخارا

فقد أخطأ في قوله يجرون للذيول، والصواب إسقاط اللام لأن الفعل متعدٍ ولكن حافظًا كما أسلفنا غير مرة لا يعرف فرق ما بين اللازم والمتعدي، هذا إلى أنه أخطأ في قوله افتخارًا وأحسبه أراد اختيالًا، والافتخار والاختيال كما يعلم كل واحد ليسا شيئًا واحدًا، وفي قوله:

مر بألف لهم وإن شئت زدها

فإنه لا معنى لهذا التحديد، ولماذا لم يخله وشأنه، فإن شاء وهبهم ألفًا وإن شاء زادها؟ ألا ترى أن قوله مُر بألف هو غاية ما وصل إليه الإنسان من التحكم البارد.
وفي قوله:

سال فيه النضار حتى حسبنا إن ذاك الفناء يجري نضارا

لأن معنى البيت: (سال) فيه النضار حتى حسبنا أن ذلك الفناء (يسيل) نضارًا؛ وأي شيء بالله أسخف من قوله إن الذهب سال حتى حسبناه سال؟ وفي قوله:

يكتسون السرور طورًا وطورا　　　في يد الكاس يخلعون الوقارا

من لي أن أراه لابسًا «ردنجوت» منسوجة من خيوط السرور، ومن لي بمن يفسر لي قوله في يد الكاس؟ فهل يعني أن الناس كانوا في يد الكاس! أم يعني أنهم خلعوا الوقار في يد الكاس! وكلاهما لا معنى له، الحقيقة أن حافظًا لم يعنِ شيئًا ولم ينظر إلا إلى المطابقة بين اكتسى وخلع، وفي قوله:

رُبَّ ليل في الدهر قد ضم نحسًا　　　وسعودًا وعسرةً ويسارا

فهل يعرف ليلًا في غير الدهر حتى قال (في الدهر) وهل رأى ليلًا لا يضم سعدًا ونحسًا وعسرًا ويسرًا حتى قال (رُب) أم تراه لا يعرف معنى رُب؟ وهل تعد من الدهر ليلة لا تضم السعد والنحس!

وبعد فأي شيطان غير أملى عليه هذه القصيدة التي لا يخلو فيها عيب من خطأ ولا يقع فيها القارئ إلا على مترقع ولكنا ندعها إلى سواها، قال:

رجوتك مرة وعتبت أخرى　　　فلا أجدى الرجاء ولا العتاب

الصواب أن يقول(فما) بدل (فلا) وقال:

وأكبر ظني أن يوم جلائهم　　　ويوم نشور الخلق مقترنان

أخذه من قول الشاعر:

ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

أو من قول ابن الرومي:

فكأن ليلتنا عليَّ لطولها　　ثبتت تمخض عن صباح الموقف

أو من قول العاري:

سهرت ليلي فنوم العين متبول　　كأن ليلي بيوم الحشر موصول

وقال:

ظبي الحمى بالله ما ضركا　　إذا رأينا في الكرى طيفكا

فأخطأ لأن حبيبه لا حيلة له في نفور طيفه كما يعلم الناس وكما لا يعلم حافظ على ما يظهر وهو لا يمنع طيفه أن يزوره في المنام فبيته لا يدل إلا على السخف والغفلة وماذا يصنع حبيبه إذا كان طيفه لا يحب حافظًا ولا يأنس به وأي ذنب لحبيبه حتى يعاتبه على جفوة طيفه! وهل يلام حبيبه من أجل ذلك؟! أم هل حبيبه عذوله في طيفه؟! وقال:

وسكت القصور في بيت خلد　　وسكنا عليك بيت الحداد

فأخطأ في ثلاثة مواضع في بيت واحد الأول: أن القصور كما يعلم الأطفال والصغار لا تكون في البيوت، والثاني: أنه لا يقال بيت خلد ولكن جنة خلد، والثالث: أنَّا سمعنا بثوب الحداد ولكنا لم نسمع ببيت الحداد! لأن الناس لم يرَوه أبدًا.

١٢

علم الله أنَّا لا نحتقر من حافظ إلا شعره، ولا نناكر إلا مذهبه ولا نناصب إلا قريحته، وإلا ألفاظه الرثة، وأساليبه القلقة ومعانيه السقيمة، وذوقه الفاسد، وأغراضه المبتذلة المطروقة، وقوالبه المشوشة، وتكلفه الشديد، ومن ذا الذي يحق له أن ينكر علينا ذلك وأن يعيبنا به أو يذمه إلينا! أو ينعي علينا مقتنا لما يستحق المقت، وأنت فقد تعلم أن الطبيعة البشرية مبنية على التعادي، وأن الفكر والعمل يبطلان إذا لم يجد الإنسان ما يبغض وأن

الحياة — لولا تناطح العواصف، وتزاحم الأضداد — ماء آجن آسن، وأن بياض النهار لا يوضحه إلا سواد الليل، وإنك إن لم تجد ما تكره، فأنت حقيق أن لا تجد ما تحب، لأن حسن الجميل لا يظهره مثل قياسه إلى قبح القبيح، وكذلك عبقريات الفحول من الشعراء وبراعاتهم وعقائلهم لا تكشف لك عن حسنها ونباهتها مثل سخافات المقصرين والمتخلفين أمثال حافظ الذي اتخذت من شعره «توابل» أشحذ بها شهوة الذهن إلى ما يعرضه علينا الفحول من شهي الألوان وكريم الطعام ومستطرفه: هذا هو ما دفعني إلى تذوق شعر حافظ لا ما ذهب الناس إليه وتوهموه بيننا من العداء، غير أني لا أرى بدًّا من الاعتراف بأن حلقي لم يسِغ هذه التوابل البشعة الخبيثة فلفظتها، وخفت أن يصيب الناس منها ما أصابني، فأعلنت حربي عليها، وأوضحت لهم ما عساه يحل بهم من المكروه إذا هم تطعموها، وهذا هو الحامل لي على نقد شعر حافظ ولقد كان بودي أن أجد لحافظ شيئًا لا تنقبض منه النفس ولا ينبو عنه الذوق، ولكن البحث قد أعياني حتى يئست مما أطلب، فإن كان لحافظ شيء من الحسنات فليبعث بها من يعرفها إليها وسأمضي في إيراد إساءآته حتى يوافيني الناس بإحساناته، فمن ذلك عدا ما ذكرنا في مقالاتنا السالفة قصيدته التي يصف فيها «هيجو» الشاعر الفرنسي الذي مسخ حافظ من كتبه «البؤساء» والتي يقول في مطلعها:

أعجمي كاد يعلو نجمه   في سماء الشعر نجم العربي

هذا البيت شر ما تفتتح به قصيدة يراد بها المدح وذلك لأن قوله أعجمي يُشعر بشيء من الاستصغار بشأن الممدوح، واستضآله وقد مضى الزمن الذي كان العرب يتوهمون فيه أنهم خير الأمم وأن ما خلاهم همج وأعاجم لا قيمة لهم ولا وزن ولكن ذلك دأب حافظ فإنه — كما أسلفنا — كثيرًا ما يذم من يريد مدحه، ويطري من قصد إلى تنقصه، وعلى أني لا أظنه أراد المدح أو الذم بل الأغلب في الظن أنه إنما جعل باله إلى المطابقة بين الأعجمي والعربي، فالبيت على ذلك لا ينطوي على شيء من المعنى.

بيد أنه ليس أدل على جهل حافظ بشعر هيجو وبشعر المعري أيضًا — وإن كان من المعجبين به والمدمنين قراءة شعره — من قوله في البيت الذي بعد هذا:

صافح العلياء فيها والتقى   بالمعري فوق هام الشهب

وذلك أن القارئ خليق أن يفهم من هذا البيت أن المعري وهيجو سواء في المذهب والرأي؛ وإلا فلماذا جعلهما يلتقيان فوق هام الشهب! على أن الحال على خلاف ما وصف والأمر على عكس ما خيل إليه لأنه ليس ثم أشد اختلافًا في المنهج وتباينًا في المنزع من هذين الشاعرين كما يعلم كل من اطلع على شعرهما، ولكني لا أظن حافظًا يرى فرق ما بينهما أو يعبأ بشيء من ذلك، وقال من القصيدة نفسها:

سائلوا الطير إذا ما هاجكم　　شجوها بين الهوى والطرب
هل تغنت أو أرنت بسوى　　شعر هوجو بعد عهد العرب

أليس هذا غاية السخف، وضعف الخيال، وسقم الذوق وجمود الخاطر، ومن أين علم حافظ أن الطير كانت تتغنى وترن بشعر العرب حتى ظهر هوجو فعدلت عنه وجعلت بعد ذلك تتغنى وتتصادح بشعره؟ وأنت أيها القارئ هل سمعت حمامتين تتناشدان المجنون أو كُثير أو المتنبي أو المعري؟ وهل رأيت مرة في بعض الأوكار حمامة «عالمة» تقلب بأظافيرها صفحات ديوان واحدٍ من الشعراء وتقرأ فيها ثم تنقل ما فيها إلى لغتها التي لا يعرفها من البشر غير حافظ وتكتب الترجمة بمنقارها على أوراق الشجر! وقال حافظ:

أبـرئ عـنـه يـعـفـو مـذنـب　　كيف تسدي العفو كف المذنب

الشطران معناهما واحد فلا ضرورة إذًا إلى أحدهما، ولست أدري علة هذا الشغف بالحشو والتكرار، تأمل قوله من قصيدته بعينها:

قلت عن نفسك قولًا صادقًا　　لم تشبه شائبات الكذب

فإن قوله: لم تشبه شائبات الكذب لا ضرورة إليه بعد قوله: صادقًا في البيت ولكني أظن حافظًا يحسب التكرار أبلغ في التأكيد لاسيما إذا أعيا الشاعر أن يتم البيت وأنه خير في الجملة أن يكرر الشاعر المعنى من أن يختصر البيت هكذا:

...　...　...　...　كيف تسدي العفو كف المذنب

أو هكذا:

قلت عن نفسك قولًا صادقًا ... ...

ومن أمثلة هذا الحشو قوله:

غفى المحزون والشاكي وأغفى أخو البلوى ونام المستهام

فإن معنى البيت نام المحزون والمحزون ونام المحزون:

وسعت كتاب الله لفظًا وغاية وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء المخترعات

فقد كانت هذه الحجة تصح لو سبق للعرب بهذه المخترعات عد أو لو وردت أسماؤها في كتاب الله فأما وذلك لم يكن فلا غرابة أن ضاقت اللغة عن هذه الأسماء الجديدة والمخترعات الحديثة، على أنه ليس ثم لغة تضيق عن العظات ولا تسعها وإنما تضيق اللغة عن أسماء المستحدثات إذا جمد أهلها.

١٣

ليس من فضل ومزية لقصيدة من القصائد إلا بحسب المعاني التي يريد الشاعر، والغرض الذي يؤمُّ، وعلى قدر روعة الموضوع وفخامته، أو رقته ولطافته، ينبغي أن تكون روعة المعاني وفخامتها، أو رقتها وظرفها، فإنه ليس أدل على سقم الذوق وتخلف الملكة من تباعد ما بين الغرض وطريقة العبارة منه وتعادي ما بين المعنى ولفظه، وما ظنك بفتاة على رأسها عمامة وفتى يلبس أساور وحلقانًا … وإنما سبيل الشاعر في ذلك سبيل المصور فكما أن الثاني يلزمه أن يتهدى إلى ضرب من التخير والتدبر في انتقاء الأصباغ وتأليف الألوان وفي مواقعها ومقاديرها وفي كيفية مزجه لها، وترتيبه إياها، كذلك يقتضي النظر شيئًا من الحذق والأستاذية وسعة الذرع حتى تستوفى المعاني حظها وتستكمل زينتها، ولا يتوهمن أحد أنَّا نقول إن الشاعر والمصور سواء في كل شيء فإن ذلك ما لا نذهب إليه ولا نجرأ أن ندعيه فقد يستطيع المصور أن يرسم لك الصورة

كما تأخذها عينه، ولكن الشاعر لا قبل له بذلك، إذ ليس في طاقة اللفظ أن يغني غناء الريشة، ولا في وسع الريشة أن تغني غناء اللفظ، وإنما غاية ما تصل إليه مقدرة اللفظ وأقصى ما يقع في إمكانه أن ينقل إليك أثر الشيء في النفس ووقعه في القلب، وما ذلك باليسير لو ظفرت به جيله، أو بلغت إليه وسيلة وهذا سبب خيبة من يحاول أن يتخذ من قلمه ريشة وأن يكون في شعره مصورًا.

قدمنا هذه الكلمة الموجزة لنقول إن «حافظًا» لم يوفَّق في قصيدته التي حاول أن يصف بها زلزال مسيني، وينعت حال أهلها، ولست أجهل أن جمهور الناس على غير هذا الرأي وأن السواد الأعظم يعدها في المنزلة الأولى بين شعره ويضعها في أخص موضع بين مثيلاتها، ولكنهم خليقون أن لا يتعجلوا، فإما إقناعهم بصحة ما نرى، وإما صرنا إلى ما يرون. حافظ أشبه بالنوائح اللواتي يجتمعن في المآتم يستبكين النساء، ويستدرون شئونهن، ويصفقن بالأيدي وينقرن على الدفوف، وحولهن معولات يلطمن حر الخدود، وهن ما بيض لهن جفن ولا تُراق لهن عبرة.

وأنت فقد تعلم أن كلام النادبات ليس فيه ما يشجي فيبكي، ولكن المفؤود يحب أن يسك سمعه صدى حزنه وشجوه، وأن يتوهم أن غيره يشاركه وجده وترحته، ويقاسمه كمده وفجعته، وربما جاوز ذلك فظن الطبيعة تساهمه أساه، وخال أن الظلام حداد الكون عليه، وأن الغمائم تبكي لبكائه وأن البرق يومض لناره، وأن الرعد صدى تهزُّم الوجد في فؤاده، وإلا فكيف تؤول قول الشاعر:

علي وإلا ما نواح الحمائم	وفي وإلا ما بكاء الغمائم
وعني أثار الرعد صرخة طالب	بثأر وهز البرق صفحة صارم

وما زالت الطبيعة منذ القدم وحي الشاعر، ترفع مرآتها لعينه فيجتلي في صقالها أعمق أعماق نفسه، وذلك أن قلب الإنسان لا يحاول البث والإفضاء بنجواه مادام لا يدري غير شجوه وألمه، وربما كان في مثل هذا الألم الذي لا يعرف له شبيها شعرًا صامتًا، ولكنه ما حرك النفس ودفعها إلى العبارة عما تجد والكشف عما تجنُّ، ولا أطلق الألم وفتح فم اليأس الصامت مثل مشاركة المرء آلام غيره والاطلاع عليها والعلم بها، غير أنه إذا أحس أن همومه أكبر من أن تقاس إليها هموم غيره من البشر، عاذ بالطبيعة وناجاها واجدًا في شجوها الصامت مثالًا جليلًا لما يجده في نفسه، ويحسه في قلبه … يزحف الليل فيقيء ظلام صدره في ظلامه الشامل وسواده المحيط، وتعود الشمس إلى

الطلوع فيذكر أيامه العذاب السوالف من أحسن عهد مضى وأحلى وأندى ويتبعها قلبه «في حيثما سقطت من الدهر» ويرى الشمس تلم الفجر فيحلم بما اختلسه من ساعات الوصل في غفلة من الرقباء وأمان من الزمان، وتجنح الشمس إلى الأصيل فيتبعها رسل النظر حتى يخبو ضرامها ويعلو رماد الطفل وهيجها فيشيم مخايل الرجاء في حياة ثانية يعقد بها حبل أمانيه ويصل أسبابه بأسبابها.

بلى إن في قلب الطبيعة لهمومًا لا يطلع عليها إلا كل من يفهم لغة الحزن الصامت، ولقد كانت هذه الهموم منبع الشعر وما زالت إلى اليوم مَعينًا لا ينضب، تأمل قول «وردزورث»:

> إن في مطلع الفجر للهيبًا متوهجًا قصير العمر يشب للشعراء، ولكم اضطرم قلبي له حين أطلقت نفسي من عقال النوم.

أما حافظ فليس من هؤلاء الشعراء الذين عناهم وردزورث ولا قلامة ظفر، غير أنه إن فاته ذاك فلم يفته أن يكون نائحة البلد ونادبة القوم، يقولون له نح فينوح، وابك هذا الراحل فيبكيه، واندب هذا الحظ فيندبه، وما أظن حافظًا ينكر علينا هذا الرأي وهو القائل في ختام قصيدة وداع اللورد كرومر بعد أن سرد آراء الناس فيه:

فهذا حديث الناس والناس ألسن	إذا قال هذا صاح هذا مفندًا
ولو كنت من أهل السياسة بينهم	لسجلت لي رأيًا وبلغت مقصدًا

ولكن دموعه أجف من أشعة الشمس لا يستبرد قلب ولا يستروح لسكبها فؤاد، كأنها قطع البرد المتساقطة، وإنما كان هذا كذلك لأنه لا يفضي إلى القارئ بعاطفة يجيش لها صدره، ويضطرب بها جنانه، ولكن بما يظن أنه أبلغ في التأثير، وأوقع في تحريك النفوس، ومن أجل هذا ترى ابتسامته في شعره جامدة كابتسامة الموتى ينتفض لها البدن، ودمعته فاترة لا يتحرك لها شجن، وزفرته باردة كأنفاس ليلة ذات شبم وأنَّاته كصرير الباب طال عليه القدم.

١٤

ترى ما عسى قول حافظ يكون لو سأله سائل: ماذا ذهبت إليه في هذه القصيدة، وإلى أي غاية نزعت، وأي صورة قصدت تصويرها، وأي حقيقة أردت تقريرها؟

لا أدري بأي شيء كان يجيب، على أنه مهما يكن جوابه فإني لا أحب أن أجشمه ما لا يطيق، ولا أن أطلب المحال أو أحدث النفس بما لا يكون ذلك لأن القصيدة من أولها إلى آخرها لا غرض لها ولا مرمى، وما أرى «حافظًا» فيها إلا كمن أراد أن يصف البحر فجعل يحث الحكومة على بناء الأرصفة على ساحله لئلا يغرق فيه الأطفال، وليست هي بحيث إذا حذفت عنوانها ثم أردت أن تتبين غرضها من فحوى بيوتها، وتتوسم موضوعها من معاريض لفظها، وجدت ذلك ممكنًا، وألفيته مرامًا هنيًّا ومطلبًا لينًا.

ألا ترى كيف أني لو أنشدتك هذين البيتين:

ليتها أمهلت لتقضي حقوقًا   من وداع اللذات والجيران
لمحة يسعد الصديقان فيها   باجتماع ويلتقي العاشقان

ولم أقل لك إنهما من قصيدة له في زلزال مسيني، لما جرى ببالك أنه يعني بلدًا لأن ذلك بعيد عن العقول، ولكان أسبق الخواطر إلى ظنك، وأوقعها في خلدك، وأشدها تمثلًا في نفسك، وأرجحها في رأيك، أنه بذكر فتاة عجلت بها حمة الفراق وأسرع بها قدر النوى.

ولو أسمعتك هذه الأبيات على غير معرفة بما يحاول الشاعر:

لا رعى الله ساكن القم الشم   ولا حاط ساكن القيعان
قد أغارا على أكف برها   بارئ الكائنات للإتقان
كيف لم يرحما أناملها الغر   ولم يرفقا بتلك البنان

«يريد النسور والحيتان» أكان يتراءى لك أنه يصف الزلزال؟ كلا، وإنما كان هذا هكذا لأن ما أوردت من أبياته يصلح أن يكون لهذا كما يصلح أن يكون لغيره، ويصح أن يقال بمناسبة الزلزال، أو بمناسبة الحرب، وفي هذا دلالة على أنه حاد عن القصد، وخرج عن الغرض، وملأ القصيدة بالحشو وكظها بما هو أجنبي منها، وما هو مستكره على مواضعه فيها وإلا فما ذنب النسور والحيتان وأي جريرة اقترفت حي يلعنها وينحي

عليها بالذم ويجعل لسانه عليها مبردًا، أتراه ظن أن الخطب كان أسير والمصاب أهون لو أن هذه الضواري رحمت ما انتشر على وجه الأرض وانطوى في جوف البحر من الجثث الهامدة فلم تسرف في جسومها «نقرًا ونهشًا» وهل «لجرح بميت إيلام». وما هذا السخف الغريب الذي يذهل المرء عما هو معلوم في بدائه العقول؟ وينسى شاعر النيل والشرق جميعًا أنه سواء أسرفت النسور والحيتان في «النقر والنهش» أو لم تسرف فإن ما كان كان، ولا حول له ولا قوة ولا ذنب للنسور والحيتان.

وما هذه الغفلة الشديدة التي جعلته يحسب أنه لما كانت مسيني تابعة لإيطاليا سياسيًّا ومن بعض أملاكها اليوم فلا بد أن يكون قطانها كأهل إيطاليا حذقًا في التصوير، وبراعة في النقش ونحت الدمى والتماثيل، ومهارة في تشييد «روائع البنيان» ونبوغًا في «نصب حبائل الألوان».

أليست هذه غفلة شديدة منه تدل على أنه لا يتدبر ما يقول، ولا يتبصر ما ينظم، وإلا فمن أنبأه:

إلا ذاك الغرار من هذه البيـــ ـــض وذاك الشرار من ذا الزناد

حتى قال إن بنان المسينيين:

ملهمات من دقة الصنع ما لا يلهم الشعر من دقيق المعاني
من تماثيل كالنجوم الدراري يهرم الدهر وهي في عنفوان

وما لحافظ واعتناف الأمور وإتيانها على جهل والخوض فيما لم يدخل له في علم، ومن علَّم حافظًا أن الجغرافيا أعذب ما تكون منظومة، وأحلى ما تقرأ مقروضة، حتى داهم الناس من حيث لا يتوقعون بهذا البيت في أول القصيدة:

غليان في الأرض نفس عنه ثوران في البحر والبركان

على أنه لو سلمنا جدلًا مع حافظ وأستاتذته الذين أخذ عنهم أن «الجغرافيا» في الشعر أحلى:

وأعذب من طعم الخلود لطاعم

وأنه لا ثقل لها على النفس ولا تنغيص ولا تكدير، لكان خليعًا بالشاعر الذي يريد أن ينظمها أن يأتي بها صحيحة على وجوهها لا مقلوبة معكوسة النظريات كما فعل «حافظ» في نظرية ثوران البراكين فقد خلط فيما شاء حتى صار أمرها ملتبسًا، وذلك أن ثوران البحر لا دخل له في التنفيس عن غليان الأرض وهو ليس دليلًا من دلائل هذا الثوران، فقد يثور البركان والبحر ساكن ولكن خيال حافظ مضطرب لا يرى الأشياء إلا كذلك.

لو كان لحافظ شيء من سلامة الذوق لفطن إلى أنه لا حاجة به إلى هذا البيت الجغرافي بعد قوله قبله:

ليس هذا سبحان ربي ولا ذا ك ولكن طبيعة الأكوان

وأنت أيها القارئ، فإذا أضفت إلى ما ذكرنا من المآخذ أغلاطه اللغوية والنحوية كقوله:

فإذا الأرض والبحار سواء في خلاق كلاهما غادران

أخطأ في قوله غادران خطأ لا يغتفر، وذلك لأنه لا يصح أن تقول محمد وعلي كلاهما مصيبان أو غادران، بل الصواب أن تقول مصيب أو غادر، كقول الشاعر:

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا أشد من ذاك على كل حال

وقول ابن الرومي يهجو:

إن أبا حفص وعثنونه كلاهما أصبح لي ناصبا

وقوله:

خسف ثم أغرقت ثم بادت

هذه الألفاظ كلها تؤدي معنى الفناء فهي حشو.
وقوله:

غالها قبلك الزمان اغتيالًا

لفظة اغتيال لا ضرورة لها بعد غالها، وقوله:

كيف لم يرحما أناملها الغر ولم يرفقا بتلك البنان

الشطر الثاني في معنى الأول فلا ضرورة لأحدهما، وقوله:

رب طفل قد ساخ في باطن الأرض ينادي أمي! أبي! أدركاني

فإنه على وفرة علامات (النداء) لا يعقل السائخ في باطن الأرض يستطيع شيئًا من ذلك.

أقول: إذا أضفت هذا إلى ذاك علمت أن هذه القصيدة ليست من الشعر الجيد في شيء لما فيها من الأغلاط اللغوية والنحوية والمعاني الفاسدة والخطأ الجغرافي والتاريخي والشطط عن الموضوع:

إذا حسن البكاء على مصاب فإن بكاءه السمج الثقيلا

هذا ما كتبنا نقدًا لشعر حافظ ولا ندعي أننا أحطنا بكل صغيرة وكبيرة، فإن ذلك ما لم نقصد إليه عما فيه من التطويل الممل وإنما أردنا أن نقدم للقارئ «أمثلة» مما نأخذه عليه ونعيبه به من تقليده ونظمه مقالات الصحف وسرقاته وفساد معانيه.

واضطراب مبانيه وخطئه اللغوي والنحوي ولو كان له محسنات لاغتفرنا له ما في شعره من السيئات فإن للمتنبي سرقات كثيرة ولكن حسناته أكثر، فليقس القارئ على ما أوردنا ما لم نورد وهو بعد ذلك قمين أن يصل إلى ما وصلنا إليه.

أما شعره الذي نظمه أخيرًا فلا نتعرض له الآن ولكنا نقول له يا حافظ: إن الصدق في العبارة عن الإحساس أو الرأي أول ما ينبغي على الشاعر ولو كان في ذلك عدو الناس جميعًا فإنه يجب أن يكون المرء مقتنعًا بالرأي إذا أراد أن يقنع غيره به وأن يكون الأستاذ تلميذ نفسه وإلا لم يأخذ عنه أحد، ولتعلم بعد أن حاجتنا إلى الأصوات أشد من حاجتنا إلى الأصداء فإن كنت تستعجل الشهرة فإن الشهرة ليست للأحياء منها ولكن لمن مات وفات وهي في ذاتها خالدة لا يؤتاها الفتى حتى تنقضي أيامه ويستوفى أنفاسه فيحيا في عقول الناس وفي قلوبهم، وتعلم أن الرغبة في الشهرة تختلف عن الزهو في أنها خيال تصوري في التمني والزهو شخصي لأن الراغب في الشهرة لا يطلب أن تتطامن لديه المفارق أو تخشع أمامه العيون وإنما يرجو أن يعرف الناس لعبقرياته حقها وحب الحق عند الشاعر قبل حبه لنفسه هي أول وله المحل الثاني لأن لديه من الشواغل ما يذهله عن نفسه ويسليه عن حبها والافتتان بها، والرجل العظيم خليق أن لا تستسر عليه معرفة نفسه أو يغيب عنه قدرها، وهو لا يتهالك على الإطراء ولا يتشوف إلى حلة يخلعها عليه كاتب أو صديق بخلاف المزهو المنخو، فإن الإطراء منتجع خواطره ومهوى فؤاده ومطمح بصره ومن كثر ذكره لنفسه خيف عليه أن ينساه الناس، والشهرة لا تنال بقوة الساعد وإذا كان طالب المدح لا يلذ ما يكتب إلا إذا أثنى عليه الناس وامتدحوه فأخلق بهم أن لا يجدوا فيه ما يلذ لأن الناس لا يستحسنون إلا ما يمتزج بأجزاء نفوسهم ويتصل بقلوبهم.

فمن أراد أن يكون عظيمًا فليتضاءل في مرأى عينه لأن حب الشهرة عبارة عن حب الإتقان فمن كان حقيقًا بها فلا بأس عليه من إبطائها وتؤدتها فإن الحق لا يبلى والطبيعة لا تخلق والزمن يجرد المرء من كل شيء ما خلا العبقرية والفضيلة. فأما صجة الثناء الكاذب فإنها لا تغني من الخلود شيئًا إذا لم تكن في الشعر بذرته وما أضأل الشهرة الكاذبة إذا قيست بشهرة تراخت عليها الحقب فأكسبتها وقار السن ومهابته ولا ييئس شعراؤنا بذلك فسوف يصبحون الأيام الخالية ويخبر الدهر ما عندهم، فإما أشاد بذكرهم فنظم حاشيتي البر والبحر وإما حباهم ببرد الغموض فصاروا غفلًا من الإغفال.